

أزهار عباد الشمس العمياء

أكتوبر 2013

رواية

397

تأليف: ألبرتو مينديس

ترجمة: عبداللطيف البازي

مراجعة: د. فهد المطيري

أزهار عباد الشمس العمياء

رواية

تأليف: ألبرتو مينديس

ترجمة: عبداللطيف البازي

مراجعة: د. فهد المطيري

• أزهار عباد الشمس العمياء
رواية

العنوان الأصلي:

(Los girasoles ciegos)

By: Alberto Méndez

Editorial Anagrama, Barcelona, 2004

حقوق الملكية العربية لهذا الكتاب لدار نشر:

سعد الورزازي للنشر

Saad Warzazi Editions

Rue Tahar Sebti, résidence Taoufik, appt.18.Rabat

Courrier électronique: editionswarzazi. driss@yahoo.fr

Tél: 0664775780

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2013م

إبداعات عالمية - العدد 397

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسماها أحمد مشاري العدوان

(1923 - 1990)

الفهرس

5	إهداء المؤلف
	أصوات الذاكرة
7	(تقديم الترجمة العربية)
	الهزيمة الأولى، ١٩٣٩
13	أو لو كان القلب يفكر لتوقف عن الخفقان
	الهزيمة الثانية، ١٩٤٠
43	أو مخطوط عشر عليه في النسيان
	الهزيمة الثالثة، ١٩٤١
67	أو لغة الأموات
	الهزيمة الرابعة، ١٩٤٢
117	أو أزهار عباد الشمس العمياء

إهداء المؤلف
إلى ذكرى لوكاس بورتيا
إلى شيما وخوان بورتيا
اللذين يعرفان معنى الغياب

أصوات الذاكرة (تقديم الترجمة العربية)

إن الكشف عن خطايا الماضي ونواقصه، والابتعاد عن الأحكام القطعية والنهائية، والتحلي بقدر لا بأس به من الشجاعة والحكمة، قد تشكل بعض المداخل الممكنة لإنصاف نساء ورجال قتلوا أو هجروا أو حرموا من الحرية لأنهم جاهرُوا، في ظروف صعبة واستثنائية، بقناعاتهم ويمناهضتهم للظلم والاستبداد والفاشية. وقد تشكل الكتابة الإبداعية إحدى الوسائط الفعالة للتطهر من الألم ومضاعفاته ولترميم الذاكرة الجماعية.

الذاكرة والألم: موضوعان مركزيان في «أزهار عباد الشمس العمياء»، رواية ألبرتو مينديس (Alberto Mendez) الوحيدة التي طبع منها تسع طبعات بين يناير ٢٠٠٤ وديسمبر ٢٠٠٥، والتي رحل كاتبها قبل أن يعيش مجده الأدبي، وهو الذي دافع دوماً عن التواضع وعما يعادله من تقشف إبداعي، ودافع عن ضرورة كتابة ما هو جوهري فقط.

أربعة فصول وأربع هزائم: جندي من أتباع فرانكو أعلن استسلامه في ظروف يصعب فهمها، وشاعر لجأ رفقة زوجته الحامل إلى ريو قريبة من السماء لأن قصائده تزعج، وسجين جمهوري يجد نفسه في مواجهة والدي مجرم حرب، وراهب مضنون بسحر امرأة يسكن زوجها دولاباً لأن أفكاره لا تروق للعسكر. هي حكايات متداخلة ومأهولة بعدة شخصيات

تواجه، في معركة غير متكافئة، كما كان حال شخصية الدون كيخوطي، طواحين هواء ممثلة في عسف آلة جهنمية وظالمة. وينتقل بعض هذه الشخصيات من حكاية إلى أخرى لنكتشف أن الهزيمة، في نسخها المتعددة، هي ما يبقى، وأنها أيضا وحدة للتأريخ ولقياس زمن مضطرب وعاصف.

وتضيء الرواية بشكل باهر مرحلة قاتمة من تاريخ إسبانيا، بأهوالها وفضاعاتها، بدناءة البعض، ورفعة البعض الأخلاقية، وتتداخل الوقائع والتفاصيل لتقدم لنا معرفة رفيعة عن الحرب الأهلية في أبعادها الإنسانية وفي تأثيرها على المصائر الفردية، ولتنبهنا إلى أن الجحيم قد يكون هو إمكانية أن نتذكر كل شيء، وأن الحب يظل في جميع السياقات بمنزلة سند يمنحنا عنفوانا نحتاجه دوما على الرغم من كل الفجائع والخرائب، مما يجعل هذه الأسئلة المتناسلة تفرض نفسها: لماذا وقع ما وقع؟ وهل يمكن ألا يقع من جديد؟ وهل القارئ نفسه سيشعر بالانهزام، أم أنه سيبحث عن دواعي أمل مرغوب فيه؟ هي مرحلة فضل المجتمع الإسباني لمدة طويلة ألا يتأملها أو يسألها، والحديث هنا هو عن الحرب الأهلية المذكورة وعن مرحلة الاستبداد الفرانكاوي كذلك، لذا ساد ما يشبه البياض وتشنجت الذاكرة الجمعية، وتوافق الإسبان، مع بداية فترة انتقاليهم الديموقراطي، على طي الصفحة من دون قراءتها بشكل كامل.

وتحتفي «أزهار عباد الشمس العمياء» بالتفاصيل البسيطة لتتخلص من ثقل موضوع حارق، وهي تستند

أحياناً على صمت صاخب يعكس الانفعالات العميقة والعنيفة للشخصيات وصراعاها المرير مع ماضيها وتجاربها التي تحكي عنها بلوعة ورغبة أكيدة في الإيصال والاقتسام. وتذكر هذه الشخصيات أحداثاً نجد أنفسنا معنيين ببعضها، إذ نقرأ كيف تدخل بعض المغاربة الذين جندهم فرانكو، وكان يرأسهم ماريشال يدعى أمزيان، في تلك الحرب الأهلية، ونقرأ كذلك كيف أن بعض الإسبان كانوا يهاجرون سرا وبحرا، لدواع سياسية، إلى شواطئنا.

وعلى الرغم من الأجواء القاتمة التي تهيمن على الرواية، فهناك احتفاء بالإبداع والمبدعين، وهناك شاعر ينشد أشعارا بين الرصاص، ومترجم لا يغادر منزله، بل حتى جندي فاشي يقضي وقته برسم أعلام ملونة، بالإضافة إلى الإشارة أو الاستشهاد بموزارت وساليري وبالشعراء رامون إي كاخال و ماتشادو ولوركا وبـ «ألف ليلة وليلة». مبدعون يضيئون ليل الهزيمة وإبداعات تؤكد أن جوهر الإنسان يتمنع على الاستسلام.

«أزهار عباد الشمس العمياء» رواية سعدت بترجمتها وآمل أن تستمتعوا بقراءتها.

عبد اللطيف البازي

«يقتضي التجاوز تحمل المسؤولية، لا طي الصفحة أو اللجوء إلى النسيان. وفي حالة وقوع مأساة، فإنه يتطلب بالضرورة إقامة الحداد الذي هو منفصل بشكل كامل عما إذا كانت هنالك مصالحة أو عفو أم لا. في إسبانيا، لم تتم عملية الحداد التي تعني، ضمن أشياء أخرى، الاعتراف العلني بأن هنالك أمرا ما ذا طابع مأساوي، وأنه - على الخصوص - عصي على الجبر. على النقيض من ذلك، وفي إطار الأجواء العادية نسبيا التي تم إقرارها، يتم الاحتفاء المرة تلو الأخرى بعدم القدرة على الحسم بين اعتبار عنصر ما مادة محسوبة على التاريخ، وبين اعتبار أن عنصرا آخر ليس بعد كذلك، وبشكل من الأشكال وبصيغة جازمة، يتم الخلط بين الحياة وغيابها. إن الحداد ليس حتى مسألة ذكرى: فهو لا يحيل على اللحظة التي يتذكر فيها أحد ميتا، ذكرى قد تكون أليمة أو متضمنة لبعض العزاء، لكنه يحيل على تلك اللحظة التي يتبين فيها أن غياب ما هو غياب نهائي. الحداد هو أن نجعل الفراغ ضمن ممتلكاتنا».

كارلوس بييرا (Carlos Piera)

في تقديمه لكتاب توماس سيكوفيا (Tomás Segovia)

«في عيني النهار» (مختارات شعرية)

الهزيمة الأولى: ١٩٣٩ أو لو كان القلب يفكر لتوقف عن الخفقان

الآن نعرف أن القبطان أليغريا اختار أن يموت بشكل اعتباطي، من دون أن ينظر ناحية الوجه المغتاظ للمستقبل والذي يترصد مصائير تم التخطيط لها بشكل معكوس. اختار أن يموت من دون عواطف متأججة ومن دون كبير استعداد للتأثر، ومن دون أن يعطي من صوته بعد أن اجتاز ساحة المعركة، وبعد أن رفع يديه ما يكفي لكي لا يبدو متوسلاً إزاء عدو مرتاب، ولكي يصرخ المرة تلو الأخرى «أنا مستسلم!».

تحت هواء معتدل وشفاف مثل عطر، كان الليل يرخي ستاره على مدريد في صمت ذي حنين لا يقطعه سوى الانفجار المنطفئ للقذائف التي تسقط فوق المدينة بإيقاع طقس ديني، لا بوتيرة حربية. «أنا مستسلم». نسجل أنه خلال ليلتين أو ثلاث ليال كان القبطان أليغريا يدافع عن هذه اللحظة. من المحتمل أنه رفض أن يقول «أنا أستسلم»؛ لأن هذه الجملة كانت ستحيل على شيء متجمد في لحظة، في حين أن الحقيقة هي أنه كان قد شرع في الاستسلام بشكل تدريجي. في البداية استسلم، وبعد ذلك قدم نفسه للعدو. ولما أتيحت له فرصة الحديث عما وقع، قدم تعريفاً

لما قام به على أنه «نصر معكوس». «على الرغم من أن كل الحروب يكون ثمنها الأموات، فإننا منذ مدة بتنا نصارع بفعل العادة. علينا أن نختار بين أن نتصرف في حرب أو أن نغزو مقبرة»، تلك خلاصة ضمنها رسالة له كتبها إلى خطيبته إنيس في يناير ١٩٣٨. الآن نعرف أنه، من دون أن يكون واعيا بذلك، رفض مسبقا الاختيارين معا.

والآن، إذ نعرف ما نعرف عن كارلوس أليغريا، نستطيع أن نؤكد أنه خلال الانتقال بين الخندقين، ما وصل إلى سمعه لم يكن سوى ضجيج رعبه. كل الصخب، جميع الانفجارات، كل الصرخات، امتصها صمت الليل. وكانت مدريد في عمق الصورة مثل خشبة مسرح، تلمطخ الهواء الفاتر بخيالات مدينة مطفأة، كان القمر يرسمها رغما عنه. كانت مدريد بصدد البحث عن مخبأ.

هكذا بدأت هزيمة القبطان أليغريا. خلال ثلاث سنوات طوال، كان يراقب ذلك العدو المعطوب الذي تربطه به قرابة، والمضطر لقبول أن يباغت جيش آخر، هو جيشه، هذه المدينة الجامدة والصامته التي رسمت حدودها بالمصادفة خلف متاريس ما كان أحد ينتظر منذ مدة أن تكون منطلق أي هجوم.

«امتزج العنف بالألم، الغيظ بالضعف، لتكون النتيجة، مع مرور الوقت، دينا شعاره البقاء على قيد الحياة، مع شعائر انتظارات يترنم فيها بالترتيل نفسه من يقتل ومن يموت، الضحية وجلادها، فاللغة الوحيدة المستعملة الآن هي لغة السيف وكلام الجرح». ذلك ما كتبه أليغريا لأستاذه في مادة

القانون الطبيعي بمدينة سلامنكا، قبل استسلامه للعدو بشهرين.

ثلاث سنوات تفرغ فيها لتدبير التموينات بدقة وبوسواس مساح الأراضي وعدم تساهل الابن الوحيد، حتى لا يتسلم أحد قذيفة من دون الإذن اللازم، وحتى يتوصل الجميع بما يلزم من الطعام ليتفرغوا لمواصلة الحرب. كانت أيضا ثلاث سنوات تفحص فيها الهزيمة بمنظاريين يميلان إلى الخضرة قام مركز التموينات بتوزيعهما على إستراتيجيي الحرب، وعلى ملاحظي المعارك، وعلى من يثير الموت فضولهم. والفضاعات التي لم تتح له فرصة أن يراها كان هناك من حكي له عنها.

من مخبئه، كان يتابع العدو، كان يراه مقبلا ومدبرا، من المكتب إلى الجبهة، من الجبهة إلى الورشة، من الجيش إلى الأسرة، ومن الرقابة إلى الموت. في البداية اعتقد أنه جيش من دون أن تكون له روح جيش ولذا تعين أن يهزم. بمرور الوقت، وصل إلى خلاصة - عكسها هكذا في رسائله - تقول إنه كان جيشا مدنيا، «وهو ما يرادف أن يعيش طائر تحت الأرض أو أن يكون وحش ذا سمات ملائكية». وفي النهاية، اقتناعه بأن أولئك الرجال يحاربون كمن يساعد جارا على رعاية قريب مريض، وبأنهم ولدوا ليهزموا حول أولئك الجنود إلى جرد للجثث. تحسب الهزيمة دوما على من يدفن أكبر عدد من الأموات.

المرّة الأولى التي واجه فيها القبطان أليغريا الخطر كانت بالتحديد يوم ابتدأت هذه القصة. لم يكن قراره هو الالتحاق بالعدو، بل أن يستسلم، أن يسلم نفسه بصفته سجيناً. إن هاربا

من الجيش هو عدو لم يعد كذلك، ومن استسلم فهو عدو مهزوم، لكنه يظل عدواً. لقد ألح اليفريا على ذلك عدة مرات عندما اتهم بالخيانة. ولكن ذلك حدث فيما بعد.

في بوج لم يتم تقديره جيداً، واستعمله أياماً بعد ذلك المدعي العسكري ليطالب بإعدامه بشكل مهين، أسر اليفريا لضابط صف بأن المدافعين عن الجمهورية كان بإمكانهم أن يذلو أكثر جيش فرانكو لو أنهم استسلموا في اليوم الأول من الحرب بدلاً من المقاومة بشراسة، لأن كل من مات في هذه الحرب، مهما كانت الجهة التي ينتمي إليها، قد تم توظيفه لتمجيد من يقوم بالقتل. من دون أموات، قال، لن يكون هنالك مجد، ومن دون مجد سنكون فقط إزاء مهزومين.

وعلى الرغم من أنه التحق بالجيش الثائر في يونيو ١٩٣٦، فإنه واجه في البداية تردد رؤسائه الذين لم يتعرفوا في ذلك الملازم المؤقت على سمات محارب، فعينوه في آخر المطاف في إدارة الإمداد والتموين، حيث ستكون له، بالنظر إلى نزاهته وتكوينه، فائدة أكبر مما لو كان في ساحة المعركة. غير أننا نعلم، وفق التعليقات التي كان يخصص بها زملاءه، أن تعباً دفيناً ومروراً الموتى حولاه، وفق تعبيره نفسه، إلى حي رتيب. وعلى الرغم من ذلك، وفي أواخر سنة ١٩٣٨، تمت ترقيته إلى رتبة قبطان لمجازاته على حماسه.

أنا مستسلم.

من المحتمل أن عامل المطبعة المسلح ببندقية الذي أزاح أخشاب الحاجز ليتكفل بقبطان من الجيش الثائر لن يعرف

أبدا أنه بهذا الشكل ابتدأت فوضى أخرى لها ارتباط جزئي فقط بهذه الحرب.

لا أحد أطلق النار. لما وصل قرب خندق جمهوري، سدد عدة رجال بلباس مدني نحوه أسلحتهم وهددوه وهم خائفون. واستجابة منه إلى أحد الأوامر، قفز إلى داخل الخندق، وفي الظلمة جرده أحدهم من المسدس الذي كان يحمله في حزامه. لم يبد أية مقاومة. كان السلاح نظيفا ولامعا ومحشوا إذ لم يستعمل من قبل. أن يتخلى عن سلاحه كان يعني بالنسبة إلى القبطان اليغريا مخالفته للتعليمات. كان بصدد إعلان استسلامه، هذا صحيح، ولكن دون تقديمه لأدنى تنازل.

لم يكن له أي ملمح متوحش أو عسكري، كان يبدو بالأحرى مثل مساعد موثق متنكر في زي جندي: وجه مدور ومكوم حول نظارتين هما أيضا مدورتين يتوج جسمهما لولا القبعة النحاسية لبدا ضئيلا. وجميع الشهادات التي استقيناها تتحدث عن أنفة ما على الرغم من انصياعه لجميع الأوامر التي تلقاها كأنه كان ينتظرها في اللحظة نفسها التي وجهت إليه فيها.

في البداية كان راكعا، واليدان قابضتان على الرقبة، بعد ذلك كان رأسه إلى أسفل، واليدان قابضتان على الرقبة، ثم كان عليه أن يسير واليدان قابضتان على الرقبة ويعبر متاهة من المتاريس حيث كان هناك رجال في حالة رثة يحرسون أفقا مظلمًا وغير مرئي، وفي الأخير، واليدان قابضتان على الرقبة، وصل إلى مساحة فارغة في غابة أشجار كثيفة، وهناك على ضوء قنديل غاز تأمله طويلا من الأعلى إلى الأسفل قبطان كان يرتدي

معطف قطيفة. كل الأوامر تمت وشوشتها له من طرف من احتجزوه، غير أن ذلك العسكري المكتوف الأيدي الذي كان في مواجهته لم يجد أدنى تحفظ في أن يسأله ببذاءة وهو يصرخ ويسأله عما كان يفعله هناك.

أجاب اليفريا بنبرة مغايرة لنبرة السؤال:

- لجنة الدفاع عن مدريد ستستسلم غدا أو بعد غد.

- أهذا سبب استسلامك؟ لا تستخف بي.

- هذا هو السبب.

تشتت الحديث في وشوشات وجمل همس بها أولئك الجنود غير المرتدين لباسا عسكريا، وكانت تصله فقط نظرات محملة بفضول وابتسامات متفهمة. لقد حسبه مجنونا.

كان بوده أن يفسر لماذا ترك الجيش الذي كان سيربح الحرب، ولماذا استسلم لمجموعة من المهزومين، ولماذا لم يرغب في أن يشكل جزءا من النصر. غير أن فظاظة هؤلاء الرجال جعلته يتراجع مقررا من جديد أن يلتزم الصمت.

كيف يمكن لحياة هؤلاء الرجال البؤساء أن تكتسي قيمة وتكون هي ما يتعين تسديده مقابل حرب؟ أتراهم ما كانوا يعرفون أن الموت يتهدهدهم؟ أتراهم كانوا يجهلون أن الانضباط الصارم سيجر معه أولئك الذين كانوا يقاومون؟

بعد اجتياز غابة الصنوبر لا ديهيسا دي لافيللا، تم اقتياده راجلا حتى شارع فرانكوس رودريغيز، حيث أوقفوا شاحنة صغيرة كانت عائدة من توزيع المؤونة بالجهة الشمالية - الشرقية لمديرية. كانت الساعة حوالي الثالثة صباحا. أجلسوه على

طرود لم تتم تغطيتها، وتحت حراسة رجلين مسلحين شرعوا في المسير. لقد أصبح أسيرا.

وفي نقطة تقاطع شارعي برافو موريو وألفاردو، أوقفت إحدى المجموعات الشاحنة الصغيرة. كان معهم رجل جريح تم إركابه وتم تعديل جلسته إلى جانب القبطان أليغريا. كان كتفه الأيمن ممزقا بفعل رصاصة، ولم يفد العلاج المستعجل الذي قدم له في إيقاف الدم النازف عبر ضمادة. كان يشتهي بصمت كأنه يريد ألا يزعج أحدا أو يرغب في المرور من دون أن يثير الانتباه. وقد أخبرنا أن السجن حاول مساعدته لإيقاف نزيف جرحه.

لما رأى الجريح أليغريا سأل:

- وهذا؟ ما الذي يفعله هنا؟

أجاب أحد الجنود:

- إنه هارب من الجيش.

صحح أليغريا:

- أنا مستسلم.

اقترح الجريح بنبرة قاطعة:

- أطلق عليه رصاصة.

فسر أليغريا:

- غدا أو بعد غد سيعلن سيخي سموندو كاسادو استسلامه.

- هكذا. ولهذا استسلمت. كف عن إزعاجي.

توقفت الشاحنة الصغيرة عند الوصول إلى المستشفى الكبير الموجود بشارع كواترو كامينوس. ساعد جنديان، بلباس رسمي هذه المرة، الجريح على النزول. ولما رأى أحدهما عن قرب بذلة

أليغريا العسكرية سأل:

- وهذا؟

- إنه هارب من الجيش.

صمت.

لا أحد أعاره اهتماما. حركات الأثم، الكتف الجريح، الظلمة وضجيج الشاحنة حالت كلها دون تقديم توضيحات إضافية. بشكل فج بدأوا في السير، وبشكل فج قطعوا الطريق وصولا إلى القبطانية العامة. كانت مدريد مطفأة الأضواء لكنها لم تكن خالية. وعلى الرغم من أن الساعة كانت قد تجاوزت الثالثة صباحا، فإن أناسا عديدين كانوا على الأرصفة، وبقدر ما كانوا يقتربون من المركز، بقدر ما كان عدد المارة يتزايد، وبساحة بويرتا ديل صول كانت حركة ذهاب وإياب الجنود والمدنيين تجعل الساحة شبيهة بخلية نحل.

دخلوا عبر شارع مايورولم يتوقفوا إلا عند وصولهم إلى داخل القبطانية العامة. هناك كان كل الرجال مرتدين لباسا رسميا ويؤدون التحية لرؤسائهم، وكان بالإمكان معرفة رتبة كل واحد منهم اعتمادا على النياشين والنجمات المعلقة. وجوده من جديد بين عسكريين محترفين جعل القبطان أليغريا يشعر بارتياح، فبينهم كان يعرف كيف يتصرف، وكان يفهم مغزى حركاتهم ورموزهم. إن الجيش، بغض النظر عن مسألة الولاء، يمثل بالنسبة إليه ما تمثله الخريطة للمسافر: كل فرد كان يحتل المكان المخصص له وكل المسافات كانت محددة.

تلك الساحة بدت له على الأرجح مثل فضاء له حرمة انتهكت في حركة محمولة وهرج لا يليق بالمكان. تقدم أحد حراسه من قائد عسكري وتحذثا عن الأسير من دون أن يتمكن اليغريا من التقاط ما قيل. لم يكن أحد يحرسه، لا أحد تنبه إلى لباسه العسكري النشاز على الرغم من أنه كان هنالك ما يكفي من الضوء لينير كل هذه الحركة. لم يكن مقيدا، ولا كان تحت الملاحظة، ولا كان مرهوب الجانب، ولا كان موضوع كراهية. لم يجانب الحق، فكاسادو كان سيستسلم. في شاحنة صغيرة أخرى، أنظف بعض الشيء من شاحنته، كانوا يضعون من دون نظام ولا ترتيب عددا كبيرا من الملفات والأغلفة والأرشيفات والوثائق من دون أن تُصنف، وكان الجنود يقومون برصها بعنف لاستعمال سعة السيارة على أحسن وجه. في حين استعملت وثائق أخرى لتغذية نار كانت تصدر فرقعات بوسط الساحة وهي تتلقى أوراقا كان مدنيون يقومون بانتقائها. ظل لمدة لا بأس بها في وضعية استرخاء يتأمل تلك الحركة المحمومة لجنود وضباط كانوا يتجاهلون وجوده إلى أن أمره جنديان مسلحان بأن يرافقهما.

نزلوا إلى سرداب كانت به رائحة عفنة، وتم حبسه بزنزانة واسعة كان يوجد بها سجين. فقط بعد أن تعود على الظلام، انتبه إلى أن الأمر يتعلق بعسكري جمهوري برتبة عريف أول. كان رجلا هزيلا وقورا، لاحظ اليغريا أنه كان رث الثياب. وبما أنه اغتاز من رتبته العالية نظر إليه بوقاحة، وباعتبار أن الظروف لم تكن تدعو إلى الانضباط اكتفى بأن قال: «صباح الخير، بالشكل الأقل ارتباطا بالتقاليد العسكرية».

كان الضجر بدأ يطل.

ما الذي يمثله مهزوم بالنسبة إلى مهزوم آخر؟
بفضل الشهادة المتوافرة لدينا، نعرف أن مرافقه في الزنزانة
قد اكتفى بأن طلب منه بشكل جاف بعض التبغ المفروم ليلف
سيجارة، وأنه أظهر لامبالاة فظة حين علم أن الوافد الجديد
لم يكن مدخنا.

قبع القبطان أليغريا بالزنزانة في أبعد نقطة ممكنة عن
مرافقه، وترك نفسه يتهاوى في مكان قاتم بذلك السرداب الذي
لا يصله ضوء كان بالإمكان استشعار وجوده من ثقب التسديد.
نفترض أن ترتيب الوقائع كان له ارتباط ما بتوقعات المستسلم،
لكن شيئاً ما دنيئاً كان ينقص من قيمتها الحقيقية، شيئاً ما كان
يشوه الأحداث ويجعل من استسلامه، الذي كان قد تصوره مملوءاً
بالتدقيقات والتلوينات الفكرية، أحقر ما يمكن القيام به.

أن نقدم افتراضات بخصوص ما تفكر فيه الشخصية المحورية
لقصتنا يعني فقط اجتهادا لتفسير الأحداث التي تأكدنا من
وقوعها. نعلم أن أليغريا درس القانون بمدرسة أولا وبعد ذلك
بسلمنكا. ونعلم، عبر أقوال بعض أقاربه، أنه تلقى التربية التي
عادة ما يتلقاها الملاكون القرويون بويرمسييس بإقليم بورغوص
حيث ولد سنة ١٩١٢ في حضن أسرة ذات أصول نبيلة، وترعرع في
بيت كبير بقوسين من حجر وشعار كان يميز أهله عن محدثي
النعمة الذين اغتنوا على حساب مجاعات الجنوب لما هزمت داء
الجمرة وآفة الكرم وسوس القمح وأشكال أخرى من سوء الطالع
القطيع والكرم والمحصول وأشجار الزيتون.

لم يكن طالبا لامعا وإن تميز بمثابرته، وقد علمه خيمينيس دي أسوا أن القانون لا علاقة له بالنظام الطبيعي، وأن على المشرع أن يكون منحازا لأن هذه هي الطريقة الوحيدة لتحقيق المساواة. أما صاحب السلطة فتكفيه سلطته.

غير أنه فيما بعد، حين وجوده في سلمنكا، تعلم أن القانون هو فوق القوانين، وأن هذا القانون لا يختار شيئا. بل حدثه كذلك عن قانون مضاعف التقديس. ومنذ أن بدأت تظهر عليه أولى علامات الرجولة، ربطته علاقة جدية ورصينة بإينيس هويويلوس، الابنة الوحيدة للملكي بقالة ميسورين، وقد ساهمت بسخاء لكي نتمكن من إعادة بناء هذه القصة.

وصل إلى علمنا أن أليغريا التحق بالجيش الثائر سنة ١٩٣٦ لأنه بذلك كان يدافع عما كان دوما في ملكيته. بالنسبة إليه، تعلق الأمر بحرب من دون معارك، من دون بطولات ولا أعداء، همها فقط تأمين الكميات الكبيرة من القمح والتبغ والألبسة وعد حمائل الخناجر وحالة الأحزمة وتدبير القذائف والأغطية والأحذية والثياب الداخلية للجنود. كانت الحرب بالنسبة إليه تعني أن يجمع ويوزع وينظم ويقسم ويدبر كل ما يحتاجه الآخرون ليقتلوا ويموتوا وينتصروا على عدو لم يره قط عن قرب، وإن كان دوما موجودا هناك كمنظر طبيعي لا يفتأ يزداد جمودا ويزداد تصلبا.

يعطينا الشق الأخير من تقرير إدارة الإمداد والتموين، الذي تعين عليه صياغته الليلة نفسها التي استسلم فيها للعدو، فكرة أساسية عن الحالة النفسية التي وجد فيها بعد ثلاث سنوات

من خوضه الحرب: «بعد إحصاء ما هو موجود تبين أن كل شيء يوافق بشكل دقيق اللوائح المرفقة، كل شيء باستثناء الضابط الذي يوقع على هذه الوثيقة والذي يعتبر نفسه دائرة مربعة، روحا معدنية، والذي إن كان يلعن عدونا فإنه لا يريد أن يشعر بأنه مسؤول عن هزيمته. التوقيع كارلوس أليغريا، القبطان المسؤول عن إدارة الإمداد والتموين...».

مرت أكثر من ساعة قبل أن يكسر ضجيج محركات الصمت الذي كان سائدا.

سأل العريف الأول:

- لقد استسلموا. أليس كذلك؟

في الخارج كان هنالك سكون ثقيل يلف أصدااء حركة محمولة لكنها صامتة وحزينة. كانوا يغادرون مقر القبطانية العامة. لم يكن أحد يعطي أوامر فالكل كان يعرف ما يتعين القيام به: الفرار في أسرع وقت ممكن. وبدأ الهرج الصامت يتلاشى كما تلاشى مشروعه. وفي الساعة العاشرة صباحا - تمكن من أن يتحقق من ذلك في ساعة اليد التي ورثها عن جده - كان كل شيء قد ذاب في هدوء البقايا وحالات النسيان. عرف أنهما بقيا وحدهما. كان هو والرجل الهزيل المقيمين الوحيدين بمقر القبطانية العامة.

كان فرانكو يحكم سيطرته على مدريد. ساعة أو ساعتين بعد ذلك وصل القاطنون الجدد إلى مقر القبطانية العامة وتوزعوا بنظام وصخب لشغل كل مكتب وكل ممر. كان مركز القرار الآن في ملكيتهم.

كانت تلك الخطوات ذات طابع عسكري، يرافقها إيقاع به سلطة وطاعة، خضوع وتراتبية. تعرف القبطان اليغريا في حركة الذهاب والإياب تلك على شيء مألوف لديه، على صوت الذات. غير أن هذا الشعور لم يمنحه أي عزاء. بل شعر على النقيض من ذلك كأنه عاد إلى عالم ما كان يرغب في الانتماء إليه، عالم هرب منه: شعر كأنه يبدأ من جديد.

ارتجاجات أبواب، أقفال، مطرقات أبواب، وأشياء أخرى مستعجلة أخرجت القبطان اليغريا من حصن ذاكرته. انفتح باب ذلك السرداب وفوجئ ضابط كان مصحوبا بثلاثة جنود يحرسونه لما تبين له أن هنالك من لم يغادر تلك البناية المهجورة. - وأنتما؟ ما الذي تفعلاه هنا؟

هذا السؤال نفترضه، لأن شاهدنا، العريف الأول الهزيل، تجنب في حكيه أمارات الخنوع (قال لنا: «فيما يتعلق بي، بعد كل ما رأيته في هذه الحرب، لم أعد لا مع هؤلاء ولا مع أولئك»)، ولكنه تذكر إصرار شخصيتنا على وضعه بصفته مستسلما.

- لمن استسلمت أيها القبطان؟

- للجيش الجمهوري، سيدي العقيد.

- متى؟

- هذا الصباح، سيدي العقيد.

التفت العقيد نحو حراسه ليتأكد من أن ما سمعه كان صحيحا. لم يقم الحراس بأدنى حركة. في الجيش، أصحاب القرار هم من يفترض فيهم أن يتكفلوا بتأويل الأوضاع الغريبة.

طلب منه بطاقته العسكرية التي تمنح فيها بارتياح وهو
يبحث عن تفسير على الرغم من أن كل ما سجل فيها هو
اسمه ورتبته ومساره القصير في الجيش. احتفظ بها في جيب
قميصه، وبنبرة مستغربة أكثر منها متوقعة سأل:

- أحقا استسلمت هذا الصباح؟

- نعم، سيدي العقيد، استسلمت هذا الصباح.

- أنت غبي وخائن. ومن أجل هذا ستحاكم.

وعادوا إلى إغلاق الباب تاركين السجينين حيث كانا. ثم
يتجرا العريف الأول على أن يرفع عينيه عن الأرض. كونه كان
سجينا قد يشكل، وكان كذلك بالفعل، خشبة خلاصه.

سجلت حالات صمت موزعة على زمن بطيء لكنه مختصر،
فقد بدأ سجناء يتوافدون على ذلك القبو بالوتيرة نفسها التي
يتدفق بها الماء من العيون.

كان القبطان أليغريا يتفحص ذلك الحشد من المهزومين
الذين كانوا ينقلون إلى سرداب مقر القبطانية العامة إلى
أن تعرف على أحد السجناء: عرف فيه الشخص نفسه الذي
رافقه ذلك الصباح من دي هيسا دي لافيلا إلى المستشفى
العمومي كواترو كامينوس. كتفه المعصوبة التي كان يتدلى
منها ذراع لا حراك فيها وحركة ألم يأس جعلتاه مألوفاً
في حظيرة الظلال. تعتمد أليغريا أن يقترب منه وسأله إن
كان يحس بالألم. مباشرة بعد وضع السؤال من المحتمل أنه
أحس بخجل مراهق: لا شك أن كتفا ممزقة وهزيمة هما دوماً
مصدر ألم.

- هل بإمكانني مساعدتك؟

- تبا ! المستسلم !

قلك الجملة التلقائية المعترفة بوضعيته الحقيقية خلفت لديه بالتأكيد بعض الرضا، إذ إنه، وفق ما حكى لنا الجريح الذي ظل على قيد الحياة لأنه خضع لعملية قطع الذراع في اليوم نفسه الذي كان سينفذون عليه حكما بالإعدام، اكتفى بالقول «شكرا» ثم التفت إلى الخلف باحثا عن الخواء. أخيرا أصبح ما قرر أن يكون. أصبح عدو نفسه.

أغار فوج من السجناء على ذلك السرداب والتحقت دهشات جديدة وحالات خوف مختلفة واستكانات متباينة. وبعد ثلاثة أيام، وبعد أن أصبح الهواء لا يطاق، بدأت عملية نقل السجناء. بخصوص المراحل التي قطعها أليفريا من ذلك السرداب ليصل إلى كتيبة الإعدام، ليس في حوزتنا سوى بضعة معطيات غير دقيقة.

كانت وثائق حراس المتاهة والرسائل القليلة التي كتبها هي الوقائع الوحيدة الموثوق بها، وما تبقى كان هو الحقيقة. كان في إمكانه البوح بكل شيء بما أن الفرصة قد أتيحت له ليقوم بذلك. لكنه فضل أن يلتزم الصمت لأنه كان يصفى حسابا مع مرابيبي الحرب.

نعلم أنه قد نُقل إلى أحد مستودعات مطار باراخاس حيث كان الجيش المنتصروهيئة عدالته يقومان بتجميع الجنود ذوي الرتب لإخضاعهم لمحاكمات سريعة انتهت، من دون استثناء، بأحكام بالإعدام.

خلال فترة اعتقاله بمطار باراخاس اضطر الجنود المخلصون للجمهورية إلى تجاهله بل وإلى تجنبه بما أنه في رسالة أخرى كتبها إلى خطيبته إينيس، وصلت متأخرة ثلاثة أشهر لأسباب غير معروفة، يصف بشكل غامض وضعيته ويشبهاها بـ «مادة لا يبنز الأولية». لم يتكلموا معه بل توجسوا منه كما يتوجس من عدو وتجنبوه في تلك اللحظات التي كانوا فيها جميعا يفكرون فيما تركوه أكثر من تفكيرهم فيما ينتظرهم. حدث كل شيء بسرعة فائقة وتهاوى بشكل غير منتظر، مما جعل حياة القبطان اليغريا تتلاشى في أحاسيس غسقية، في حالات عزلة لا ترحم، وفي خوف وقح. لم يتجرأ على أن يصلي حتى لا يثير انتباه الإله وغيظه.

ظل في مستودع باراخاس الكئيب من رابع أبريل إلى الثامن منه، وازداد ضعفه، وذبل مثل قربة جافة، وتبددت بالتدريج رباطة جأشه لشعوره إما بغثيان أو بدوار أو بإغماء أو بارتعاشة أو بهجمة جوع. اطلعت فرقة من الكتائب على طبيعة انتماء كل واحد من السجناء الذين تلقوا، وهم في وضعية وقوف عسكري، صنوفا من الشتائم والضربات والإهانات قبل أن تنزع شارات رتبهم العسكرية من لباسهم ووثائقهم وكل حوائجهم الشخصية. رفض العقيد لوصون - لا توجد معطيات أخرى عن انتمائه - التخلي عن نجمات رتبته بما أنه حصل عليها بشكل مستحق في ساحة المعركة، فمحت طلقة مسدس، في رمشة عين، المرتبة والنجمات والحياة. محاولة فرار، هذا ما تم تسجيله ببساطة في شهادة وفاته.

غير أنه في يوم الثامن من أبريل، جاءت اللحظة التي طالما انتظرها القبطان اليغريا. ففي منتصف الصباح حين كان

ضوء النهار يحول ذلك المستودع إلى قفص لتوسلات حنين تتلى بصوت منخفض، ولحالات صمت مستحيل يعانيها مئات الرجال المكومين، نودي على الأسماء الأولى.

هذه هي الوثيقة الأكثر واقعية بخصوص ما حدث بالفعل، الحقيقة الوحيدة التي تؤكد قصتنا والتي من المحتمل تضمينها لكثير من نقاط التشابه مع ما نحن بصدد حكيه. ولولا خشيتنا أن يتم تأويل كلامنا بشكل سيئ لكنا اكتفينا بنقل محضر المحاكمة حينما تم الحكم على أليغريا بالإعدام رميا بالرصاص لأنه خائن ومجرم أساء إلى وطنه.

بشكل إرادي، تغاضينا عن الإشارة إلى الجزء الأول من محضر الحكم المستعجل المستند إلى القانون العسكري المطبق في حالة الحرب، والذي سجل فيه انتماء القبطان أليغريا، ونزع رتبته، وطرده من الجيش ونعته، استنادا إلى ذلك، بأنه خائن عسكري في زمن الحرب.

بعد اعتبارات عدة لا يتم فيها الحديث عن مساره العسكري ولكن عن بعض السلوكات الدالة التي استقيت من معلومات جمعت من رؤسائه المباشرين، يسجل المحضر ما يلي:

«لما سئل عن التاريخ الذي قرر فيه العبور نحو الخطوط العدو، مرتكبا بذلك خيانتة للجيش الوطني المجيد، يجيب بأنه قام بذلك في فاتح أبريل من سنة النصر الحالية».

«وعن سؤال حول الأسباب التي دفعته إلى أن يقرر خيانة وطنه يجيب قائلا إنه قام بذلك لأن الملازمين الأولين العقيديين طيا وبارون سيطرا في نوفمبر من سنة ١٩٣٧ على منطقة

فيلافيردي ومنطقتي كارابانجيليس بمدير. وأضاف أنه قام بذلك لأن قوات أصينسيو وكاصطيوخون سيطرت على «لا كاسا دي كامبو» بمدير المحمية من طرف الفرقة الأولى والفرقة الحادية عشرة من القوات الأممية التي اكتفت بالتراجع حتى ضفاف نهر مانزاناريص».

«وعن سؤال حول ما إذا كان المقال من وظيفته كارلوس أليغريا يعتبر أن عمليات التقدم الموصوفة قد كانت سببا كافيا لخيانة الجيش الوطني المجيد يجيب قائلا: إنه قام بذلك أيضا لأن الجنرال فاريللا أمر أصينسيو بأن يعبر بدباباته نهر مانزاناريص، الأمر الذي تمكن من القيام به يوم ١٥ نوفمبر من سنة ١٩٣٧، وهو اليوم نفسه الذي سيطر فيه بارون على المستشفى العسكري لكارابانجيل باخو».

«فعل ذلك لأن حكومة الجبهة الشعبية غادرت مدريد في اليوم نفسه معتبرة أنها قد سقطت في يد العدو، وكلفت بالدفاع عنها الجنرال ميخا الذي لم يكن يوجد تحت إمرته سوى جيش مكون أساسا من القوات الدولية التي أرسلها الجنرال كليبير عديم التجربة».

«فعل ذلك لأن أسينسيو كabanيليس أحكم قبضته في اليوم نفسه ١٥ نوفمبر على الحي الجامعي لمدير وهو يرأس زمرة من جنود نظاميين منحدرين من تطوان وصلوا حتى حديقة لامونكلوا ليشرف الجنرال أسينسيو كabanيليس بنفسه على مستشفى مدير للعلاجات الذي كان في طور البناء».

«ويتلقى المصحح أمرا بأن يصمت فيفعل».

«وعن سؤال حول ملابسات اطلاقه على الوقائع المذكورة،
يجيب الخاضع للمحاكمة أن مرد ذلك إلى أنه كان مسؤولاً
عن تدبير إدارة الإمداد والتموين الجبهة الجنوبية والجنوبية
الشرقية، تحت الأوامر المباشرة للجنرال فاريلا. ولهذا فهو
يعلم أنه في نوفمبر من سنة ١٩٣٧ وصل العقيد ريوس
كابابي ومحمد مزيان حتى الجهة العليا من شارع فيراص،
بوسط مدريد، وهناك لقياً مواجهة من مقاومين كانوا بصدد
التراجع». ويتلقى المصريح أمراً بأن يصمت فيفعل».

«وعن سؤال حول ما إذا كانت البطولات المجيدة للجيش
الوطني هي الدافع إلى خيانة الوطن، يجيب بالنفي، وأن السبب
الحقيقي هو أننا لم نكن حينذاك راغبين في أن نريح الحرب
ضد الجبهة الشعبية».

«وعن سؤال يقول إنه إذ كان صحيحاً أننا لم نكن نريد ربح
الحرب الصليبية المجيدة، فما الذي كنا نريده، يجيب الخاضع
للمحاكمة: كنا نريد قتلهم».

بعد ذلك، طرد من الجيش وثبت اتهامه بجريمة الخيانة
والتواطؤ مع العدو. وحكم عليه بالإعدام.

هنالك توقيع وطابع غير مقروءين.

تحدث القبطان أليغريا، أخيراً، عن موضوع قبول رؤسائه
المباشرين لرشوات.

انطلاقاً من هذه الوثيقة، تمتزج الوقائع التي نحكي عنها
بخليط من الأخبار المتضاربة المشككة من أحداث موثوق بها
أحياناً أو ثمرة ذكريات غير واضحة حكاها شهود فضلوا النسيان.

ووثقنا مع ذلك بذكريات غائمة متعلقة بجمل همس بها خلال حالات نوم قلق، واحتلت مكانا ضمن فظاعة الحقيقة، على الرغم من أنها ليست مؤكدة بشكل قطعي.

اضطر القبطان اليغريا، وقد أصبح مدنيا، وقد أصبح خائنا، وقد أصبح ميتا، إلى العودة إلى المستودع حيث حكم على العديدين وحيث كان آخرون في انتظار الأحكام. كتب ثلاث رسائل على الأقل: واحدة لخطيبته إينيس، وقد حصلنا عليها، وأخرى إلى والديه اللذين تهدم منزلهما بهويرميسيس بفعل فيضان نهر أوربيل جارفا مع مياهه ذاكرة وممتلكات ورغبة عيش لدى عجوزين ثبتا نظرتهما، لما علما بفقدانهما ابنهما، في نقطة لا معنى لها من المنظر الطبيعي ولزما الصمت حتى أنهما قبل أن يسلما الروح لم يرغبيا في الاعتراف أمام أي راهب. أما الرسالة الثالثة فوجهها إلى الجنرال الأعظم فرانكو قائد جيش إسبانيا. وقد علمنا بأمر هذه الرسالة الأخيرة لأنه أشار إليها في الرسالة التي وجهها إلى إينيس: «كتبتها لا لأستعطف أو أطلب العفو، ولا لأظهر ندمي، ولكن لأقول له إن ما رأيته قد عاشه آخرون، ولذلك فمن المستحيل أن يظل منسيا بين أزهار السوسن».

في رسالة أخرى إلى إينيس، التي كانت تشتغل معلمة بأوبييرنا، يتحدث بشكل خفي عن العزلة التي تجعل منه بقايا إنسان، وكما فعل ذلك من قبل مع القديس خوان دي لا كروث، عليه أن يلجأ إلى جمل صاغها آخرون ليتحدث عن نفسه، كأنه لا يجبرؤ على استعمال عواطفه: «أنا كائن كان، وكائن سيكون،

وكائن متعب الآن». لا تأثر هناك في لحظة وداعه، ولا حتى حب، فقط عويل منتشر وطعن ضد من عاصره، والأسى على حياة ضائعة. «لم يكن لدي وقت لأضع خططا لحياتي لأن فظاعات أخرى جعلت مستقبلي معلقا. ولكن تأكدي أنني لو كنت قد وضعت تلك الخطط لكنت أنت العمود الفقري الذي يمنح التوازن لمشروعي».

إذا كان علينا أن نتخيل ما أصبحت عليه الحياة بالنسبة إلى القبطان أليغريا، تعين علينا أن نتحدث عن زوبعة من زيت: بطيئة، ولزجة ولا يمكن تجنبها. حاملا وحدته من مكان إلى آخر في مستودع الآلام ذاك، يلفه الفراغ، ناقلا معه المسافة بينه وبين الكون، ترقب اللحظة السابقة عن النهاية وهو لا يعرف أن النهاية لم تكتب بعد.

تسعة أيام وهو ينتظر دوره. كل صباح، اعتمادا على المصادفة وعلى شكل قافلة، كانت مجموعة من السجناء تجبر على الانتظام مثنى مثنى بالمستودع لتساق إلى شاحنات كانت تختفي في منظر طبيعي فاتر ومقفر. قليل هم أولئك الذين كانوا يلقون تحية الوداع. كان أغلبهم يذهبون في صمت. من المحتمل أن الموت من دون تأثر سيبدو لأليغريا شيئا مألوفًا نظرا إلى تعوده على تأمل عدوه، غير أن الحياة، وقد ارتهنت إلى الوجود أو عدمه عند الزاوية المختارة لانتقاء الموتى، لا بد أنها قد أصبحت بالنسبة إليه غير محتملة. كان أليغريا يرفض الصدفة ويحتاج إلى النظام. نستطيع أن نفترض أنه شعر ببعض الارتياح حينما كان، وهو منهك القوى، أحد الذين شكلوا القافلة يوم ١٨ تحت

مطر شديد. في الشاحنة، مكدسين ومنشغلين بحفظ التوازن، كان كل المحكومين ملتصقين، متشابكي الأيدي ويتبادلون النظرات. في منتصف الطريق، بحثت يد ما عن يده وتبخرت وحدته حينما ضمته يد بصمت وبشدة مما منحه موقعا في طائفة المهزومين. تلت ضمة اليد نظرة، ثم نظرات أخرى، وعيون محمرة بفعل الضعف والبكاء المخنوق. «سامحوني»، قال ثم غاص في تلك الجلبة، جلبة الأجساد الحزينة. كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحا حين وصلوا إلى أركاندا ديل راي. كل شيء كان مهيباً. حاجز من حجر، بقايا إسطنبول مهدم، ساحة واسعة، كتيبة الإعدام، وصف من الحراس الذين أحضروا كل ما يلزم من أجل التنفيذ. شاحنات أخرى، محكومون آخرون، حالات يأس جديدة التحقت بالحفل. كان هناك قس بشال بنفسجي يرتل باللاتينية دعوات لاستجداء الرحمة. كان عددهم يقارب المائة، وكان عليهم أن يتزاحموا حتى لا يتجاوزوا مقاس الجدار. لحظات من الصمت لكي ينهي القس ابتهاله بإشارة مباركة رسمها في الهواء بفتور وداع حزين ومباشرة بعد ذلك سمع صوت يأمر: «كتيبة»، ساد الصمت ثانية، وأمر الصوت: «صوبوا»، وبعد سيادة الصمت من جديد سمع الأمر التالي: «أطلقوا النار».

إذا كان أحد ما قد صرخ، فلا أحد تمكن من سماعه. حين استعاد القبطان أليغريا وعيه كان مدفونا في قبر جماعي مختلطا بسديم من الأموات والتراب. لزمه بعض الوقت لفهم ما جرى، غير أنه لما شعر بالألم عرف أنه قد انتهك مجددا قوانين عالم كانت العودة إليه ممنوعة. كان على قيد الحياة.

مزيج من نخاع وغضاريف جامدة، ودم مخثر ويران، وأنفاس محبوسة، وقلوب فاجأها الموت فاحتفظت بأكياس هواء في ارتباك الأموات، هذا ما مكنه من أن يتنفس على الرغم من أنه كان مدفونا. كان على قيد الحياة. هنالك ظلمة للأحياء وأخرى للأموات. واليغريا خلط بينهما لأنه لم يحاول فتح عينيه، لكنه لما سمع بكاءه عرف أن ذلك لم يكن صمت الأموات. كان على قيد الحياة.

تحدث اليغريا دوما عن هذه اللحظة باعتبارها ولادة. احتاج، وهو خائر القوى، إلى بعض الوقت لتبين حدود جسده المرتخي والمضغوط بجثث مدفونة بعضها مع بعض. كان التهاب بالرأس يؤلمه إلى درجة جعلته يظن أن جمجمته قد انقسمت إلى نصفين. ويبطء، وحتى لا يزعج راحة أولئك الأموات، بدأ يقرب ذراعيه من جسده متوقفا بعد كل مجهود يبذله لكي لا يلهث فقد كان يخشى أن يستنفد الهواء المتوافر. كان يستجمع ما يستطيع من القوة حتى يتخلص من الثقل الذي يشل حركته. قبل أن يعدم، كان قد رأى الحضرة التي كان مدفونا فيها. وبالنظر إلى عمقها، لم يكن بالإمكان أن توجد جثث كثيرة فوقه. حاول عدة مرات، وفي كل محاولة تبين له أن شيئا ما كان يتحرك فيخف ضغطه إلى أن تمكن من التحكم في الوضع ووجد نفسه مباشرة تحت السماء. ملأ التراب المكان الذي كانت تشغله جثته وزحف إلى أن وصل إلى مرتفع ثم ترك نفسه يسقط إلى أسفل محاولا إيقاف بكائه. كان كاملا لا تنقصه إلا النظارات.

كانت رصاصة قد أصابت الجهة العليا من جبهته، ولحسن حظه مرت بمحاذاة جمجمته مخلفة جرحا غائرا يكاد يصل إلى العنق من دون أن يكسر الوجه. كان هنالك دم بوجهه وبصدغيه وعنقه، غير أن التراب خفف من خطورة الجرح، وعلى الرغم من أنه ينزف الآن من جديد، فإنه لما كان مغشيا عليه كان لقلبه سبب آخر لينبض عدا الخوف.

كان الليل قد بدأ يسدل ستائره.

هنا ستبتدئ تقلبات في حياة أليغريا، لدينا بصدها تفاصيل قليلة، فهو إذا كان أحيانا يقبل التطرق إلى ما حدث قبل واقعة انبعائه، فإنه نادرا ما قبل أن يحكي لأي كان عن كيفية قطعه المسافة الفاصلة بين أركاندا ديل ري ولأصابيدا القرية الجبيلة الموجودة بالجهة الشمالية من جبل صوموسييرا. كانت غرانيت ونبات نشابة وجبال تحيط بهذه القرية المبنية بالآجر والحجر، والتي كانت تظل تحت الثلج في سبات طوال فصل الشتاء وتنشغل بعمليات حرث لما يصل فصل الربيع بأجوائه المعتدلة.

ذات مرة، أخبر أحد سجانيه أن الجميع، باستثناء الحيوانات، كانوا يهربون منه، يفرون عندما يرون أن ذلك الرجل المتسخ الهزيل الذي يشع الألم من نظرتيه، كان على قيد الحياة. في تلك الأيام وحدهم الموتى لم يكونوا مصدر خوف.

عثروا عليه في حقول لأصابيدا منهكا يحتضر، وقد حسبه بعض القرويين في البدء ميتا، لا لأنهم لما قرروا نزع الحذاء عن رجليه، سمعوا تلك الرأس المضرجة بالدماء تطلب ماء. كان

مرتديا اللباس الرسمي للجيش الذي كان قد انتصر من فوره في الحرب في حين كان يرتجف باختناقات مهزوم.

الآن نعلم أنه كانت هنالك مجموعة من الخيارات تراوحت بين دفنه حيا، بعد أن عرفت الجهة التي أطلقت عليه النار، أو تركه يموت بين نبات النشابة، أو إخبار السلطات بأنه قد عثر عليه. غير أن عجوزا حازمة قررت أن تعطيه ما كان يطلبه وأن تمسح وجهه بتنورتها.

قالت: «كلنا أبناء الرب، بما في ذلك هؤلاء». بدأت هكذا سلسلة من الإسعافات للجريح امتدت طوال ثلاثة أيام ليظل ذلك الميت على قيد الحياة. كان كل شيء يشارك في المؤامرة حتى يتعذر عليه أن يستقيل من الحياة بالطريقة نفسها التي يمكن أن يتخلص بها النائم من حلم عند اليقظة.

أبقوه هناك بين نبات النشابة، من جهة بسبب الخوف، ومن جهة أخرى لتجنب خطر أن يموت خلال عملية النقل. عالجوا الجرح بمواد لا فائدة منها، لفوه بغطاء وأعطوه ماء وبعض الغذاء. اليوم نعلم أن ذلك كان، في تلك الظروف، فيضا من الرحمة، قدره أليغريا حق قدره بأن تجنب ذكر أسمائهم.

أن يقترب أحد من رجل عضن ولزج بسبب البراز والدم، أن يرفع رأسه، وأن يضع ماء في شفثيه بوداعة، وأن يطعمه بملعقة حساء يمكن للأموات هضمه، وأن يقول له جملة مواساة، كل ذلك كان علامة على أن شيئا إنسانيا ظل حيا على الرغم من الخراب الذي سببته الحرب. ولولا شفثاه المتشققتان، لكان أليغريا قد ابتسم. هكذا حكى عن ذلك، وهكذا ننقله بدورنا.

كذلك حكى للممرضين الذين كان يتعهدونه في السجون التي حل بها لاحقاً، أنه لما كان هنالك ممدوداً، متجاهلاً نداء الأرض التي كانت تطالب بما في ملكيتها، لم يكن الخوف من الموت هو مصدر عذابه، بل الخجل من أن يروه في تلك الحالة من التحلل، والخجل من أن يشموا نفسه المثير للغثيان، أو أن يتسخ من يمد له يد العون حين يلمس التقيح الذي تفرزه جروحه. كان يلف نفسه بالغطاء حينما كانوا يحضرون له الغذاء ولم يكن يسمح لأي كان بأن يقترب. الآن نظن أن ذلك كان على الخصوص طريقة لتجنب الإدلاء بتفسيرات. كان صباح اليوم الرابع من دون سُحب، وكان الغطاء مضمخاً بالندى حتى أن الحمى لم تشفق على شيء ولا حتى على عظامه. كان يتمنى الموت بهويرميص، لكن الحياة كانت باقية بالنسبة إليه على شكل مرق في تلك المناطق البعيدة غير المضيافة. استجمع كل قواه ووظف حتى ارتعاشاته لكي يتحرك، وبعد ثنيه للغطاء ليعلن عن امتنانه وضع الماء والبطاطس المسلوقة في الإناء الذي كانوا يحضرون له فيه الغذاء، ثم بدأ مسيره نحو قريته الواقعة وراء الجبال التي كانت تخفي وحشيتها بين السحاب. بدأ في السير في اتجاه قمة الجبل قاصدا صوموسييرا.

تبرز تلك الجبال هناك لتقسم إسبانيا إلى قسمين، والآن يحلو لنا أن نعتبر أن المجهود الشديد المطلوب لاجتيازها كان شكلاً آخر لتجاهل وجود هذه الجبال الفاصلة، وكان مرادفاً للرغبة في الوجود في الجهتين.

بحث عن السبيل الذي تاه عنه بفعل تأثير الحمى، وارتقى تلك العقبة المحاذية للطريق حتى لا يراه من كانوا ينتقلون من جهة إلى أخرى. كان الأمر يتعلق دوماً بفرق من الجيش تنقل مؤونة أو جنوداً أو سلاحاً وكل ما يمكن احتياجه لمواصلة السيطرة على الأرض التي تم غزوها. حركات خاملة لحرب، مثل حروب أخرى، تنقضي، لكنها لا تجد حلاً أبداً. فقط من حين إلى آخر كانت تمر سيارة مدنية ولا أحد بإمكانه الجزم أنه لا يتم حجزها. كان الليغريا يعرف أن كل من لهم سلطة التحرك بحرية يحتمل أن يكونوا خصوماً له. هذا لم يكن يعني أن الخاملين، الصامتين، لم يكونوا أعداء له، ذلك أنه كان يجهل إلى أي الفريقين ينبغي لجندي أن ينضم بعد أن يريح حرباً ويخسرهما في آن معاً.

وعلى الرغم من رغبته في التخفي، فإنه لم يتجراً على الابتعاد عن الطريق لأنه كان يخاف من أن يفقد القوى الضرورية لكي يواصل العيش، وفي هذه الحالة، سيتمدد على الطريق ليعثروا عليه ويدفنوه على الطريقة المسيحية، أو على الأقل، لن يقبلوا بأن تنتهي بقاياه طعاماً للذئاب والكلاب الوحشية التي كانت تتسكع بصبر منتظرة نهاية ذلك السفر المقدس. وألحت عليه فكرة تقول إنه إذا كانت الأجساد ستبعث فإن الأمر يتطلب أن يكون مظهر الهالكين مقبولا بعض الشيء، في حين لم لم يتبق لديه سوى تعفن ذي رائحة كريهة ومهينة. كانت رائحته النتنة من القوة بحيث كان من المستحيل أن يمر من دون أن يثير الانتباه برغم الخلنج والنشابة والربيع والزرعتر.

كل تلك الاحتياطات جعلت الطريق يطول ثلاثة أيام إضافية، واكتفى في اليوم الأول بالبطاطس المسلوقة، ولكنه فيما بعد، ومع تزايد برد القمة، لم يجد سوى أحد الأكياس ليستعمله كثوب يلفه في الليالي لحفظ حرارة الجرح لما تشتد الشمس في الظهيرة.

وأخيرا وصل إلى صوموسييرا، قرية من الغرانيت والحجر يحتاجها المشهد ليصبح جميلا. وصل بعد الزوال، بشمس مائلة وقوية ساعدته على الاقتراب من المنزل الصغير الذي جعل منه الحراس مقرا لهم. هنالك كان جنود الجيش الذي ربح الحرب الأخيرة، باللباس الرسمي، بأحذيتهم، ومعاطفهم الرخيصة والأسلحة التي كان مكلفا، طوال سنوات، بتنظيم توزيعها. لم يشعر بأي حنين ولا ندم، غير أنه شعر ببعض الشجن. تأملهم من خلال نظره الحسير خلال ساعات إلى أن نزل الليل، وكان على الجنود إيقاد النار لإضاءة الطريق وليستدقثوا. تأمل عملية تناوب الجنود على الحراسة التي تنجز بشكل مضحك، عملية تتم من دون معرفة بالأمر ويفتور كان يعكس ضجرا أكثر مما كان يشير إلى نصر.

ربما واقته حينذاك الفكرة التي سجلها في تقييدات عشر عليها بجيبه يوم موته الثاني، الحقيقي، ذاك الذي حدث فيما بعد، لما رفع غطاء الحياة ببندقية منتزعة من حراسه.

هل هؤلاء الحراس النحيفون والضجرون الذين أراهم هم الذين انتصروا في الحرب؟ لا، إنهم يريدون العودة إلى منازلهم، حيث لن يصلوا بصفقتهم جنودا منتصرين، ولكن بصفقتهم

غرباء عن الحياة وغائبين عما يعنيهم، وسيتحولون، تدريجياً، إلى مهزومين. سيختلطون مع أولئك الذين هزموا وسيتميزون عنهم فقط بأثار الأحقاد المتعارضة. وسيكون مآلهم أنهم سيخافون، كما هي حال المهزوم، من المنتصر الحقيقي الذي انتصر على الجيش العدو وعلى جيشه نفسه. فقط بعض الموتى سيتم اعتبارهم مؤثرين في الحرب.

كل التأملات، بالإضافة إلى الذاكرة، لا بد أنها ظلت مدفونة تحت الحمى، تحت الجوع، تحت التقزز الذي كان يشعر به تجاه نفسه. وهو يستجمع القوى القليلة التي كانت مازالت لديه، وكان قد بدأ يزحف، إذ لم يعد قادراً على الوقوف، واقترب من الحراس ببطء من دون أن يعير اهتماماً للاندھاش والتفور اللذين أحس بهما الجنود لما رأوا هذه الفضلات تزحف.

وحينما تغلب على بكائه قال:

- أنا واحد منكم.

الهزيمة الثانية: ١٩٤٠ أو مخطوط عثر عليه في النسيان (*)

عثر على هذا النص العام ١٩٤٠ بمرج بأعالي صومبيدو، حيث تتواجه منطقتا أستورياس وليون. كما عثر على هيكل رجل راشد، وجسد عار لرضيع محفوظ بشكل مدهش فوق أكياس من القنب موضوعة على نضيدة من التبن: كانت جلد ذئب وصوف ماعز جبلي ونبات سرخس جاف تغطيهما. كان الجسدان متلاصقين وملصوفين في غطاء ملاءة بيضاء، «كأنهما يشكلان عشا»، تسجل الوثيقة، تتناقض نظافته مع المسكن المتسخ والنتن والبئس. كانت هنالك بقايا جافة محتفظة برائحتها الكريهة لبقرة من دون قوائم ومن دون رأس. وفي العام ١٩٥٢، خلال بحثي عن بعض الوثائق في الأرشيف العام للحرس المدني، عثرت على مظروف أصفر كتب عليه: «هالك مجهول الهوية». كان المظروف يتضمن دفترًا بمعجون مشمع، أوراقه قليلة وبها مربعات ومضمونها هو ما أنقله. كان مكتوبًا بخط جميل ومنظم. في البداية كانت الكتابة بحروف كبيرة بدأت بالتدريج تصغر كأن المؤلف بدت

(*) وصل هذا الفصل، مع بعض التحويلات، إلى نهائيات الجائزة الدولية للقصص ماكس أوب ٢٠٠٢، ونشرته مؤسسة ماكس أوب. شكراتي للذين أذنوا لي أن أدرجه في مكانه الأصلي.

له أشياء إضافية للحكي فخشي ألا يسع الدفتر. أحيانا تبدو الهوامش مزينة برموز غير مفهومة أو بتعليقات مكتوبة في وقت لاحق. هذا الأمر يستخلص أولا من شكل الخط (الذي كما أقول يصغر المرة تلو الأخرى ويصبح أكثر دقة)، لأنه على ما يبدو يعكس حالات نفسية متباينة. على أية حال، أسجل هذه التعليقات فيما يقابلها من صفحات. وقد عثرا على الدفتر موضوعا فوق كرسي تحت حجر ثقيل ما كان ليتركه أحد هناك من دون ترتيب مسبق. وكان كل ما سجله حارس الأمن الذي رفع التقرير هو: صرة جلدية خاوية وفأس وسرير من دون فراش وكأسان من طين فوق الموقد المنطفئ. كان لباس نسائي متواضع وأسود معلقا. لم يتم العثور على علامات إضافية للحياة، غير أن التقرير يسجل - وهذا ما دفعني إلى قراءة المخطوط - أنه كانت هنالك جملة تقول: «شردمة مفضوحة لطيور ليلية»، وهذا هو النص:

الصفحة ١

ماتت إلينا خلال الوضع. لم أتمكن من إبقائها في هذه الجهة من الوجود. غير أن ما يحير هو أن الطفل ما زال حيا. إنه هنا، مرتخ ومرتجف فوق قماش نظيف إلى جانب أمه المتوفاة. وأنا لا أدري ما الذي علي أن أفعله. لا أتجراً على لمسه. بكل تأكيد سأتركه يموت إلى جانب أمه التي ستعرف كيف تعتني بروح طفل وتعلمه أن يضحك إذا كان بالفعل هنالك مكان لكي تضحك فيه الأرواح. لن نهرب الآن إلى فرنسا. من دون إلينا

لا أريد الوصول إلى نهاية الطريق. من دون إلينا، ليس هناك من طريق.

كيف يمكن تصحيح الخطأ المتمثل في أن يكون المرء حياً؟
لقد رأيت موتى عديدين، ولكنني لم أتعلم كيف يمكن للمرء أن يموت !

الصفحة ٢

ليس من العدل أن يباغتنا الموت بهذا الشكل المبكر من دون أن يكون هنالك متسع من الوقت لتعلن الحياة عن ولادتها.
تركت كل شيء كما كان. لا أحد في إمكانه أن يقول إنني قد تدخلت. الأم ميتة والابن يعلن عن أنه حي بحركاته المتكررة وأنا جامد من أثر الخوف. رمادي هو لون الهروب وحزينة هي إشاعة الهزيمة.

(هنالك مقطع شعري... ويمكن قراءة بعض الكلمات منها «متين»، «دون ضوء» أو «ضوئي»، الأمر غير واضح، «نسيان الضجيج». وعلى الهامش ويخط أصغر هناك جملة تقول: «هل هذا الطفل هو سبب الموت أم هو ثمرته؟»).

الصفحة ٣

أريد أن أترك كل شيء مدونا لأشرح لمن سيعثر علينا أنه هو أيضاً مدان، هذا في حالة ما إذا لم يكن هو أيضاً ضحية. ألتمس ممن سيقروا ما أنا بصدد كتابته أن ينثر بقايانا على الجبل. لم تستطع إلينا الوصول إلى نقطة أبعد، وأنا والطفل نريد أن

نظل إلى جانبها. تهمتي الوحيدة أنني لم أعمل على تجنب ما وقع. لم أتعلم أن أراوغ الحزن، والحزن فصل عني إلينا بمنجل. بالإضافة إلى أنني لا أتقن سوى الكتابة وحكي القصص. لا أحد علمني أن أتحدث حينما أكون وحيداً، ولا أحد علمني أن أقي الحياة من الموت. أكتب لأنني لا أريد أن أتذكر كيف تقام الصلاة، ولا كيف توجه اللعنات.

كيف لقصة بهذا الجمال أن تنتهي في جبل تهزه الريح؟ نحن الآن في شهر أكتوبر، غير أنه في هذه الأعالي يتحول الخريف كل ليلة إلى شتاء.

بكى الطفل طوال اليوم بقوة مدهشة. توفق في جعلني أفكر فيه وإن كنت قد سممت نظرتي في وجه إلينا الميتة، ومر الصباح بأكمله من دون أن أعيره أي اهتمام. الآن انتبعت إلى أنني لم أذرف أي دموع، ربما لأن بكاء الطفل كاف وضروري. أنا ما كان بإمكانني البكاء بكل هذه الحرارة، وما كنت لأستطيع الصراخ بكل هذا الحنق. بكيت إلينا من دون أن أبذل أي مجهود. كيف يمكن لإنسان أن يبكي وأن يغشى عليه في الوقت نفسه؟ الآن يبدو أن الطفل لم يعد يحس بأي شيء. اقتريت لأنظر إليه وتبين لي أنه مازال يتنفس، غير أنني شعرت، حينما حاولت أن أحركه، كأن أحدا ما قد نزع عنه هيكله العظمي.

الصفحة ٤

تأملت ملياً وجه إلينا الأبيض، لم يعد شحوبها بالقوة نفسها كما كان في لحظة الاحتضار. بكل بساطة فقدت كل الألوان.

ربما كان الموت شفافاً ومجمداً. خلال الساعات الأولى شعرت بالحاجة إلى أن أبقى يديها بين يدي، لكنني بالتدريج فطنت إلى أنني ألمس أصابع لا تداعبني، وخشيت أن تكون هذه هي الذكرى التي ستظل مطبوعة بجلدي المنهك. مرت عدة ساعات من دون أن ألمسها، كما فقدت القدرة على أن أتمدّد إلى جانبها. على نقيض الطفل. فهو الآن يرقد منك القوي مستكيناً قرب أمه. للحظة اعتقدت أنه كان يرغب في أن يعيد الدفء إلى الجسد الجائهم الذي كان له ملجأ خلال الفترة التي استمر فيها دوي الحرب.

أجل. لقد خسرنا حرباً، وإذا ما تركنا الفاشيين يقبضون علينا فسيكون ذلك بمنزلة إهدائهم نصراً آخر. رغبت إلينا في أن تتبعني، والآن نعرف أن قرارنا كان خاطئاً. لست أريد التخلي عن فكرة أن خطأ بهذا السخاء لم يرتكب قط.

كان يتعين علينا أن نأخذ بعين الاعتبار موقف والديها اللذين أستمحهما إذ وافقا مضطرين على أن ترافقني إلينا في رحلة هروبي.

قلت لها: عليك أن تمكثي، لن يؤذوك. أجابت: سأتبعك. سيقتلونني. سأموت. كنا نتحدث عن الموت لنترك الحياة ظاهرة للعيان. لكننا أخطأنا. ما كان علينا أن نبدأ سفرنا بكل هذا الطول وهي حامل في شهرها الثامن. لن يعيش الطفل وأنا سأترك نفسي أسقط على المراعي التي سيكسوها الثلج إلى أن تزهري ببؤبؤة عيني أزهار ستزعج من فضلو موت الشعر. ميغيل، ستتحقق نبوءتك!

أين أنت الآن يا ميغيل، وما الذي يجعلك تتخلف عن
مواساتي؟ أنا مستعد لأن أضحى بما لا يحصى من الزمن مقابل
أن أتمكن من سماع أبياتك الرقراقة، كلماتك المتزنة، نصائحك
الصديقة. مع كل هذا الألم، ربما أصبح شاعرا يا ميغيل. وقد
لا تحتاج إلى أن تظهر كل ذلك الرفق الذي أظهرته دوما. هل
تتذكر عندما كنت تنادينني رامي السهام البروليتاري؟ كانت إلينا
تعزك لذلك وستواصل معزتها لك برغم أنها ميتة.

الصفحة ٥

هل كانت إلينا ستفضل أن أفصل الطفل عن غشاء الجنين
الذي يلغسه، وأن أربط حبل صرته مع إحدى فرديتي جزمتي، وأن
أحاول إهانة المنتصرين بهذه الحياة وهي تفرض نفسها وتأخذ
بثأرها؟ أظن أنها ما كانت تريد ابنا مهزوما. أنا لا أرغب في ولد
هو ثمرة الهروب. ابني لا يريد حياة ولدت من رحم الموت. أم تراه
يريدها؟

إذا كان الإله الذي حدثوني عنه طيبا، فسيتيح لنا فرصة
اختيار ماضينا، لكن لا إلينا ولا ابنها بإمكانهما الرجوع إلى
الوراء في هذا الطريق الموصل إلى هذه المرجة التي ستكون
بمنزلة قبر لإلينا.

هذا الصباح، نمت متكئا على الطاولة. أيقظني بكاء الطفل
الذي هو الآن أقل حدة ويذكر بفترة النقاهة. البارحة لم أبال
بحنقه، وشكواه اليوم خلّفت لديّ حزنا. لا أدري إن كنت مذهولا
من جراء النوم والبرد أم أن قواي بدأت تخور هي الأخرى بعد

ثلاثة أيام دون تناول أي طعام، غير أن المؤكد هو أنني، ومن دون أن أفكر في الأمر، وجدت نفسي أرضعه قطعة ثوب مبللة بحليب ممزوج بالماء. في البداية كان مترددا بين أن يعيش أو أن ينساق وراء مشروع، لكن بعد برهة، بدأ يمص السائل من قطعة الثوب. تقياً ثم واصل المص بشراهة. الحياة تفرض نفسها مهما كان الأمر مكلفاً.

أظن أنني أخطأت حينما حملته بين ذراعي، أظن أنه كان من الخطأ إبعاده للحظة عن الموت، غير أن حرارة جسمي والغذاء الذي تمكن من تناوله أغرقاه في نوم وهن وعميق.

الصفحة ٦

صنعت مهداً بأكياس من القطن وغلفته بغطاء السرير المنسوج الذي ورثته إلينا عن جدتها، وقد ألحت على أخذه معها كأن كل ماضيها يتلخص فيه. لم يعد الغطاء بالاجاذبية نفسها التي كانت له عندما هربنا معاً، ولكنه يمنح دفئاً للطفل، ومن المحتمل أنه مازال محتفظاً ببعض رائحة الأم.

عليّ أن أعترف أنني لم أحتمل المقارنة بين الحياة والموت. أن أراهما معاً على الفراش نفسه، الوجه إلى الأعلى، إلينا خائفة القوى إلى أقصى حد، وهو عاجز عن الإتيان بأي حركة، جعلني أشعر بأنني أضع خطاً بين الحقيقي والمزور. بشكل فجائي، كان الموت موتاً ولا شيء غير الموت، بعد التخلص من بساطة الجسم، ودون البعد الحيواني للحياة. إن جثة، بعد مرور ثلاثة أيام، تصبح معدناً من دون رطوبة النفس، ومن دون

هشاشة الأزهار. إنها ليست حتى شيئاً أعزل، إنها شيء عاجز على أن يشعر بأنه محاصر، ومع ذلك، فإنه يقبع كأنه لا يريد أن يثير الانتباه. إن جثة، بعد مرور ثلاثة أيام، هي مجرد إحساس بالوحدة، وتفتقد موهبة الحزن. ويصبح حبل الصرة بالتدريج أكثر جفافاً حين يشرع الطفل في البكاء.

(على جوانب هذا النص هنالك رسم جد دقيق حيث يمكن أن نتبين نجمة هاربة أو تشخيصاً طفولياً لطيارة من ورق وهي تصطدم بهلال يبيكي).

الصفحة ٧

لم أتناول طعاماً. مازال بحوزتي بعض الخبز الجاف وسمك مجفف تزودنا بهما خلال رحلة الهروب. عاد الطفل إلى مص الحليب الممزوج بالماء. يبدو أنه يحس بالشبع. اليوم سأدفن أمه إلى جانب شجرة البلوط. لا أملك ما يكفي من القوة لأحلب البقرات، ولكنها معرضة للأمراض وخوارها هو الآخر لا يتركني أفكر في إلينا. آمل أن يصعد أحد من الوادي ليقنن الماشية حتى لا يكون عليّ أن أقرر إن كنت سأتناول طعاماً أم أترك نفسي تتهاوى. ولكن في زمن الرعب هذا، ترتب الماشية حياتها على هواها. ما لم يصل فصل الشتاء، ستظل هذه الحيوانات تتجاهل وجود الذئب والبرد والعلاقات التي تقيمها قوى الطبيعة فيما بينها. اليوم تحديداً، نحن تحت رحمة الظروف نفسها. البقرات الأربع أو الخمس التي يتعين حلبها ستهلك إن لم يحم أحد بذلك. كيف اختفى من كان يعتني بها الآن بالضبط؟ ولكن هذا

لا يهتم في هذه الأيام المشؤومة. زد على ذلك، أنني في انتظار اتخاذ قرار وسأحتاج للحليب من أجل الطفل.
السماء تمطر. هذا أفضل. لا أحد سيتجراً على الصعود حتى هذه المرحلة. على الرغم من هذا المناخ الرديء تمكنت من إدخال بقرتين إلى الإسطبل. إحداهما تعاني من التهاب في الضرع. عليّ أن أقتلها حتى لا تتعذب. اليوم أكل الطفل ثلاث مرات.

الصفحة ٨

البارحة دفنت إلينا تحت شجرة زان. هي شجرة أكثر هشاشة من شجرة البلوط وأكثر ارتخاء. صوت ارتطام التراب فوق جسمها المتصلب ورائحة جسدها المتحلل جعلاني أبكي وأختنق إلى حد أنني شعرت بأنني أنا أيضاً سأموت. غير أن الموت لا يعدي. الهزيمة تفعل. وأشعر بأنني ناقل لهذا الوباء. أينما حللت ستكون رائحتي رائحة هزيمة. وبسبب الهزيمة ماتت إلينا، وبسبب الهزيمة سيموت ابني الذي لم أمنحه بعد اسماً. أنا خسرت حرباً وإلينا التي لا أحد كان بإمكانه أن يعتبرها عدوة له، ماتت مهزومة. وابني، ابناً، الذي لا يدري أنه ثمرة التماعاة خوف، سيموت مريضاً بالهزيمة.

وضعت حجراً كبيراً فوق قبرها. ثم أكتب اسمها لأنه إذا كانت هنالك ملائكة، فأنا متأكد أنها ستتعرف على الروح السخية لإلينا من بين آلاف الأرواح السخية.

أحاول أن أتذكر أبياتاً لكارسيلاسو لأصلي على قبرك، إلينا، ولكنني نسيت الآن كل شيء، بما في ذلك الذاكرة نفسها. ينبغي

أن أتذكر تلك الأبيات.

(هنالك عدة محاولات فاشلة لكتابة القصيدة، ولكن تم التشطيب على كل شيء، وإن كان بالإمكان قراءة الأبيات التالية:

الدموع التي على هذا القبر

تنسكب اليوم وستنسكب

هي من أجلك ، ولو أنها من دون ثمرة...

إلى أن تغلق تلك الليلة اللامنتهية

عيني اللتين رآتاك

تاركتين إياي مع آخرين يرونك).

الصفحة ٩

لا أعرف لماذا أدون كل شيء في هذا الدفتر؟ غير أنني سعيد بأنني أحضرته معي. لو كان معي أحد لكان بإمكانني أن أتحدث معه، تملكني لذة مرضية عند تخيلي أن أحدا ما سيقراً ما أكتب حينما سيتم العثور علينا ميتين أنا والطفل. وضعت شاهداً من حجر على قبر إلينا لتكون هناك ثلاث حالات مثيرة لتأنيب الضمير، وإن كان وقت الشفقة قد ولى. البرد قارس. قريباً سينزل الثلج وستسد جميع الطرق المؤدية إلى هذه المرجة. سيكون لدي فصل الشتاء بأكمله لأقرر أي ميتة سأموت. أجل، أظن أن زمن الشفقة قد ولى.

الصفحة ١٠

(سلسلة من الصور مرسومة بشكل سيئ، ولكن يبدو بوضوح

أنها لوجوه، ومن بينها يبدو ثلاث مرات وجه طفل، ومرتين وجه امرأة - المرأة نفسها في الحالتين معا - ووجوه مختلفة لعجائز من الجنسين، بعضهم بطاقية، وبعضهم الآخر بمنديل مربوط على العنق وقلب، هذا الأخير مرسوم بأكمله. تحت كل هذه الرسوم كتبت جملة: «أين ترقدون؟».

البقرة المريضة تخور وتخور، ولم تعد تعطي حليباً. لم أتجرأ على قتلها بعد لأنني أنتظر أن تتشكل قطع ثلج لتخزينها. هناك حطب كثير وسأتمكن من تأمين غذاء للأخرى إذا ما اجتثت عشباً من تحت الثلج. فقط يقلقني القلم. لدي قلم واحد وأرغب في أن أكتب ما هو ضروري لكي يعرف من سيلقانا في فصل الربيع على أي موتى عثر.

(معتمدة حروف التاج ومتشبهة بحروف المطبعة كتبت هذه الجملة: «أنا شاعر من دون أبيات»).

الصفحة ١١

لم يتوقف الثلج عن التساقط اليوم. من المفروض أن تكون هذه الجبال إقامة لكل فصول السنة.

ما زال الطفل على قيد الحياة والثلج من حولنا كأنه كفن. لدينا ما يكفي من لحم البقرة الميتة التي أبقيت جزءاً منها مدخناً كما أن فصل الشتاء سيحفظها من التعفن. لحسن الحظ لدينا ما يكفي من الحليب بفضل البقرة الحية التي تتقاسم معنا الآن المأوى وتمنحنا دفئاً. لازالت البطاطس الحلوة التي سرقناها من بيرلونيس في حالة جيدة بفعل الثلج ويبدو

أن الطفل يجد مذاقها لذيذا إذا ما أخذنا في عين الاعتبار الشراهة التي يتناول بها الحساء الذي أعده له. من المدهش كيف أن الطفل بدأ يحتل الفضاء تدريجيا. أتذكر حينما كان عبارة عن شيء غريب، شيء ما كان ينبغي له أن يكون هناك. الآن، الكوخ بأكمله يدور حوله، كأنه هو المركز. في الأيام المشمسة، التي هي أيام قليلة، يعكس فراشنا الضوء كأنه مرآة، ويتجمع الصمت كله حول الأصوات التي يبيتها الطفل باستمرار، بما في ذلك صوت بكائه حينما يفاجأ أن هنالك قدما عارية تطير في الهواء أو بقرة ذابلة ومستكينة، في حين أن من المفترض أن يوجد منزل يحضن أسرة. يضع تنفسه الوديع والمدوزن حدا للشعور بالوحدة الذي لولاه لتمكن مني.

الصفحة ١٢

عثرت على عنزة برية أكل الذئب نصفها. مازالت هنالك وفرة من الطعام واليوم سنأكل من بقايا العنزة. باستعمال العظام والأحشاء تمكنت من طهي حساء خفيف يقبل عليه الطفل بشكل جيد.

(هنا يقع تحول دال في نوعية الخط. برغم الحفاظ على دقة الكتابة، فإن الخطوط تبدو كأنها كتبت باستعجال، أو على الأقل بتردد. لا بد أن وقتا طويلا قد مر).

هل سيتعرف عليّ والدي إذا ما رأياني؟ لا أستطيع أن أرى نفسي لكنني أشعر بأنني متسخ وبئيس، لأنني في الحقيقة أصبحت ابن هذه الحرب التي كانا يريدان تجاهلها لكنها غمرت

بالخوف إسطبالاتهما وبقراتهما الجائعة وأراضيهما المزروعة.
أتذكر قرיתי الساكنة والفقيرة التي لا تبالي بأي شيء باستثناء
الخوف الذي أغلق عينيها عندما قتل السيد سيرفاندو، معلمي،
وأحرقت جميع كتبه، وإلى الأبد، نفي جميع الشعراء الذين كان
يستظهر أشعارهم عن ظهر قلب.

لقد هزمت. لكن كان بإمكانني أن أنتصر. هل سيحتل آخر
مكاني؟ سأحكي لابني، الذي ينظر إلي كأنه يفهمني، أنني ما
كنت لأترك أعدائي يهربون دون حماية، وما كنت لأحكم على
أي كان فقط لأنه شاعر. بقلم وورقة انطلقت إلى ساحة المعركة
ومن جسدي خرجت كلماتي متلاحقة مواسية الجرحى، ومن
المواساة التي كنت أصور خرج جنرالات متوحشون، اعتبروا أنه
من الطبيعي وجود جرحى. جرحى، جنرالات، جنرالات، جرحى،
وأنا في الوسط بشعري. متواطئ. وبالإضافة إلى ذلك، هناك
الموتى.

الصفحة ١٣

(هنالك جملة لحقها تشطيب، ولذلك فهي غير مقروءة.
كتب نص هذه الصفحة حول حدود يد طفل. على الأرجح، يد
الطفل كانت له بمنزلة خطاطة. ومع ذلك فقد كتب فوقها).
مر الوقت ولن أعرف كيف أحدثكم عن الأيام لأنها تتشابه
إلى درجة أنني أتعجب أن الطفل يكبر. أعيد قراءة دفترتي وأرى
أنني لم أعد حيث كنت. وإذا ما فقدت القدرة على الغضب،
ما الذي سيتبقى لي؟ فصل الشتاء هو علبة مغلقة تتدافع

فيها عواصف الثلج، وهذه الجبال مازالت تبدو أنها المكان الذي تقضي فيه فصول الشتاء فصل الشتاء. أصبح حزني أقوى من جراء البرد. فقط أشعر بالخوف الذي طالما خشيته. أخاف أن يمرض الطفل، أخاف أن تموت البقرة التي بالكاد أتمكن من تغذيتها بقطع جذور النباتات القليلة التي فاجأها الثلج وهي لازالت حية. أخاف أن أسقط مريضاً. أخاف أن يكتشف أحد أننا هنا في أعلى الجبل. أخاف من كل هذا الخوف. ولكن الطفل لا علم له بذلك . إلينا!

تصرخ الريح عبر الجبال في الليالي مصدرة أنينا يكاد يكون إنسانياً، كأنها تعلمنا، أنا والطفل، ما ينبغي أن تكون عليه شكوى البشر. لحسن الحظ، هذا المرج يتحمل بشكل جيد مرور كل العواصف.

الصفحة ١٤

اليوم قتلت ذئبا! جاءت أربعة ذئاب تطوف حول الكوخ. في البداية، تملكني الخوف لأن حاجتها إلى الأكل تكسبها شراسة تكاد تكون إنسانية، ثم فيما بعد فكرت أنها قد تكون مصدر غذاء. لما بدأ الذئب الأكبر حجما يحك الباب فتحت شقة الباب بعناية وبقدر كاف لكي يدخل رأسه ثم ضغطت. وبالفأس التي أستعمل كمرتاج وجهت له ضربة جعلت شراسته تسيل مع دمه. سأكله وسأهيئ بأحشائه طعاما يناسب الطفل. هذا أمر جيد. غير أنني عدت لأتعايش مجددا مع رائحة الدم، عدت إلى سماع أزيز الموت، رأيت مرة أخرى لون الضحايا. وهذا أمر سيئ.

(في هذه الصفحة، هناك رسم يمثل هيئة ذئب مع طفل يعود
القهقري، حالتها معا منشرة، وقد ارتفعوا فوق حقل مزهر
كأنهما يطيران).

الصفحة ١٥

قال ذئب لطفل إنه بلحمه الفتى
سيقضي فصل الشتاء
قال الطفل للذئب إنه سيأكل فقط رجلا واحدة
وبالنظر إلى صغر سنه
فسيحتاج قريبا أن يخشاه الآخرون أكثر
إذ ستأتي اللحظة
التي، برغم عرجه، سيحتاج فيها إلى أن يتغذى بلحم ذئب
مشوي.

تبادلا النظرات وشعرا بحزن عارم
لاضطرارهما أن يسيء أحدهما إلى الآخر
إلى درجة أنهما قررا أن يعيدا المشهد
متجنبين الخديعة المتمثلة
في أن يكون أمرا ضروريا على الدوام،
لكي يعيش شخصان يتحابان بغض النظر عن عواطفهما،
أن يعيش أحدهما ويموت الآخر
(أما الخلاصة)
كلاهما مات من الجوع
(تحت هذه الأبيات كان هنالك توزيع موسيقي لا يمكن

عزفه. كثيرون هم التقنيون الذين حاولوا فك شفرة هذا التوزيع المحتمل، ولكن لا أحد تمكن من ذلك).

الصفحة ١٦

السماء تثلج. السماء تثلج. السماء تثلج. بفعل الوهن المتمكن مني، تتزايد الصعوبة التي أشعر بها حينما أقطع الحطب قصد تدفئة الكوخ حيث نعيش، أنا والبقرة والطفل. غير أن الطفل، الذي لم أختبر له بعد اسما، يتمتع بحيوية مدهشة. يصدر أصواتا من حنجرتة حينما يكون مستيقظا، كأنه يغرد. من جهة، يسرني أن يكون مستيقظا لأن ارتباطه الكلي بي يمنحني أهمية لم يمنحني إياها أحد باستثناء إلينا. ومن جهة أخرى، تشلني عيناه وهما تكادان تتجاوزان محجريهما إلى أن تبدوا ضخمتين مع خدين متهدئين. إنه نحيف جدا، والبقرة أيضا نحيفة جدا، وإن كانت لازالت تعطي حليبيا كافيا له ولي. وأنا جد نحيف ولا أستطيع حراكا.

لا أدري في أي شهر نحن؟ هل حان أوان احتفالات رأس السنة؟

اليوم، وأنا أتتبع أثر حيوان، نزلت إلى أسفل الجبل في اتجاه سوطري، ورأيت مجموعة من قاطعي الخشب في السهل. شعرت في داخلي بخوف مألوف وكثيف يحيى من جديد. الآن، أنا فخور بخوفي، ففي نهاية هذه الحرب الوحشية، رأيت عددا كبيرا من الناس يموتون بسبب تهورهم. إذا بقيت هنا سنموت أنا والبقرة والطفل، وإذا نزلنا إلى السهل، سنموت أنا والبقرة والطفل.

الصفحة ١٧

لقد فكرت مليا في الأمر، لكنني لا أريد أن أمنحهم نشوة النصر الأخيرة. قد يكون من العدل أن أموت أنا؛ لأنني لست سوى شاعر رديء غنى للحياة في المتاريس حيث كان يسكن الموت. لكن أن يموت الطفل فذاك أمر ضروري فقط. فمن ذا الذي سوف يحدثه عن لون شعر أمه؟ عن ابتسامتها؟ عن الرشاقة التي كانت تتجنب بها الريح حتى لا تمسها؟ من سيطلب عفوه لأنه أتى به إلى الحياة؟ وإذا ما بقيت حيا، فما الذي سأحكيه له عن نفسي؟ هل أقول له إن كافبيديس بلدة معلقة على جبل له رائحة الحرو والحطب، وأنه كان لدي معلم يستظهر أشعارا لغونغورا وماتشادو، وأنه كان لدي أبوان لم يستطيعا إقناعي بالبقاء إلى جانب إسطنبولهما، وأنني لا أعرف ما كنت أبحث عنه بمديريد في عز الحرب، منشدا أشعار بين طلقات الرصاص؟ هذا هو الأمر يا بني! كنت أريد أن أكون منشدا أشعار بين الرصاص! (خط صارم وعميق يميز هذه الجملة الأخيرة إلى حد أنه ثقب الدفتر ذا الشمع الأسود).

الصفحة ١٨

أنا عاجز عن مواصلة تغذية البقرة، والبقرة عاجزة عن مواصلة تغذية الطفل. أحفر تحت الثلج بحثا عن قذى العشب الذي يزداد بمرور الأيام ضعفا وندرة. عثرت على عقدة في جذور البندق المتيبس، وباستعمالها أتمكن من إعداد عجينة لا مذاق لها، غير أنه بعد أن أغليها وأخلطها، أعطيها إلى البقرة وإلى

الطفل. لا أدري إن كانت تصلح غذاء، لكنني أعطيه ريقى ويظل على قيد الحياة. وعلى الرغم من أنه شديد الضعف، فإنه بدأ يحاول التحرك. لكن تنقصه القوة الكافية لذلك. يتقوس وهو يستند فقط على الرأس والرجلين. لكن، لا يلبث أن يتهاوى بعد ذلك على الفور. لو كان بإمكانى، لنزلت إلى السفح لأطلب غذاء. ولكن من المستحيل الخروج من هذه الجبال. أنا ولدت ببلدة لا تعرف الثلج، ولا أحد علمني إزالة الثلج الصامت. عندما أبتعد عن الكوخ أكثر من المعتاد، أغرق حتى الخاصرة وأتأخر طويلا في الخروج من المصيدة البيضاء. ما تركته الذئاب من جثة البقرة الميتة هو من الصلابة، بحيث إنه ولو باستعمالي الفأس، لا أتمكن من قطع أي شيء، بحيث لا أتمكن، حتى مع استخدامي الفأس، من قطع أي شيء. لحسن الحظ، البقرة مكسوة بالثلج، والبارحة حاولت أن أخرجها من تحت الأرض علني أعثر على شيء ضامر في أحشائها.

الصفحة ١٩

اكتشفت حيوانا، نصفه لحم ممزق، ونصفه الآخر هيكل عظمي، وعنقه ممدود كأنه كان يسعى إلى أن يهرب من دون جدوى. تشكل ضلوعه المتبقية القليلة وعاء يبدو كأنه لحفظ الروح. بيد أن روحه أيضا أكلتها الذئاب.

(هنا يوجد رسم يصور رأس بقرة بشكل فني، في طول سهم، ويرسم أخاديد في الهواء. وتحتة يوجد تعليق: أين يمكن أن توجد جنة البقر؟).

أنا على استعداد لقتل البقرة الثانية بما أنه مازال فيها بعض اللحم. لكني لن أتمكن من حفظها في حالة جيدة. لو تركتها حيث يوجد الثلج، ستنتهي الذئب التي تتريص بنا بأن تشم رائحتها. داخل الكوخ، أتمكن من الحفاظ على درجة حرارة ستؤدي إلى تعفن ما تبقى من جسمها. هل ستظن البقرة أنني أنقذتها من الذئب أم ستعرف أن الذئب هي التي تحول دونها ودون الفأس؟ لعلها عرفت الحقيقة لهذا لم تعد تمنح حليباً.

(هنا توجد سلسلة أوراق، تسع تحديداً، وقد قطعت في الوقت نفسه لأن الرسم نفسه الممزق يتكرر فيها جميعها. في ترقيم الصفحات الذي يأتي بعد الآن، لم نأخذ بعين الاعتبار الأوراق الناقصة من الدفتر).

الصفحة ٢٠

الطفل مريض. يكاد لا يتحرك. قتلت البقرة، وأنا الآن أعطيه دمها. غير أنه يصعب عليه أن يبتلع أي شيء. لقد غليت قطعاً من اللحم وعظاماً إلى أن أصبح المرق ثخيناً وغامق اللون. أعطيه إياه ممزوجاً بماء الثلج. كل شيء له، من جديد، رائحة الموت.

إنه جد ساخن. الآن أكتب وهو نائم في حضني. كم أحبه! غنيت له أغنية حزينة لفيدريكو:

بكاء جمجمة

تنتظر قبلة من ذهب

(في الخارج ربح قاتمة

ونجوم عكرة)

لم أعد أتذكر الأشعار التي كنت أنشدها للجنود. تحت وقع
الجوع، أول ما يموت هو الذاكرة. لا أتمكن من كتابة ولا بيت
واحد، بيد أن في ذهني تترد مئات الأغنيات لتنويم ابني. كلها
تشارك في الكلمة ذاتها: إلينا!

اليوم قبلته. قبلته لأول مرة. نسيت شفتي من فرط عدم
استعمالهما. ترى ما الذي شعر به عند تماسه الأول مع البرد؟
إنه لأمر فظيع، لكن عمره الآن ثلاثة أو أربعة أشهر ولا أحد قبله
قبل اليوم. أنا وهو نعرف كم يطول الزمن من دون قبلة، والآن،
من المحتمل أنه لم يتبق لنا ما يكفي من الوقت لنعوض أنفسنا
عما فات. الخوف والبرد والجوع والغيبض تبعد الحنان الذي يعود
فقط، كأنه غراب، عندما يشم رائحة الحب والموت. غير أنه الآن
في وضعية حيرة إذ إنه يشم رائحة الشئيين معا. هل هناك حنان
أبيض وحنان أسود؟ إلينا، أي لون كان لحنانك؟ لم أعد أتذكر.
ولا أعرف حتى إن كان ما أشعر به هو حزن. ولكنني قبلت الطفل
من دون أن أحاول أخذ مكانك.

الصفحة ٢١

رائحة نتنة تسيطر على الجو. غير أنني أتذكر فقط رائحة
الشمار.

(بحروف بارزة، بارزة جدا، غطت هذه الجملة ما تبقى من
الصفحة المكتوبة بخط غير دقيق: آه، من دونك لا يوجد أي شيء).

الصفحة ٢٢

لم أعر على قلّمي (القليل مما تبقى منه) وظللت لعدة أيام عاجزا عن كتابة أي شيء. هذا الوضع أيضا هو بمنزلة صمت، هذا الوضع أيضا هو بمنزلة كمامة. ولكني اليوم عثرت على القلم تحت كومة من الحطب، وتملكني إحساس بأنني استعدت ملكة الكلام. لا أتبين حقيقة مشاعري ما لم أعمد إلى تقييدها، وذلك على ما يبدو له ارتباط بتربيتي القروية. اليوم قضيت وقتا طويلا متسلقا جذعا من دون أوراق محاولا العثور على بصمات حيوان قد يصلح لنا غذاء. رأيت منظرا طبيعيا أبيض لا تتقاطع فيه الخطوط، فسيحا، لا متناهيا، تهزهزه ربح عنيدة وباردة مع أزيز لا يقوم سوى بتثبيت الصمت المهيم. وبينما كنت مستغرقا في تأملي، تملكني شعور لم أستطع تحديده، شيء لم أتبين حتى إن كان طيبا أو سيئا. الآن، بما أنني عثرت على قلّمي، أعرف ما كان: الوحدة. لدي شعور بأن كل شيء سينتهي ساعة انتهاء الدفتر. لذا أكتب فقط خلال المساءات. يبدو أن قلّمي هو الآخر قد خسر الحرب، وعلى الأرجح، ستكون الكلمة الأخيرة التي سوف أكتبها هي «سوداوية».

الصفحة ٢٣

الطفل مات وسأسميه رفائيل، مثل أبي. لم يكن لدي ما يكفي من الدفء لأبقيه حيا. تعلم من أمه أن يموت من دون أن يبالي في إظهار عواطفه. وهذا الصباح لم يرغب في أن ينصت إلى كلمات عزائي.

(فيما تبقى من الصفحة، بخط معتنى به بدرجة أكبر مقارنة بما كتب لحد الساعة، وبدرجة عالية من الإتقان، يكرر اسم «رفائيل»، «رفائيل»، «رفائيل»، ثلاثا وستين مرة. حرف الراء في اسم رافائيل هو دوما زخرفة موضوعة عموديا على شكل أزهار تبتدئ على الشمال وتنفث على اليمين، يغلفها خط أكرش، راسمة تقويسة تلتقي مع الخط العمودي في نصف العلو تقريبا لتعود إلى الابتعاد مثل تنورة منشاة وتتهاوى نحو الأسفل في خط سرعان ما يختفي. إنه حرف «ر» إنجليزي وقوطي في آن واحد.

الصفحة ٢٤

(من جديد يتكرر اسم «رفائيل»، «رفائيل» اثنين وستين مرة).

الصفحة ٢٥

(يكرر اسم «رفائيل» بنوعية الخط نفسها ولكن بمقاس أصغر مائة وتسع عشر مرة).

الصفحة ٢٦

(تم تغيير القلم، ومن المحتمل جدا أنه تم تكملة النص بجمرة منطفئة أوبشيء ما مشابه. من الصعب قراءة ما تم تخطيطه، إذ بعد كتابته، مرر المؤلف يده فوقه كأنه حاول أن يمحوه. نظن، إذن، أننا قرأنا بشكل صحيح ما كتب، وإذ ننقله فإننا نسجل هذه التحفظات).

«شردمة لثيمة من طيور محلقة».

(تعليق المحرر: العام ١٩٥٤، ذهبت إلى قرية بإقليم سانتاندير اسمها كافبيديس. هي قرية معلقة على الجبل وتعمها رائحة البحر القريب، وإن كان لا يمكن رؤيته لأنها تطل على داخل السهل. سألت هنا وهناك وعرفت أن المعلم، الذي كانوا يدعونه السيد سيرفاندو، أعدم العام ١٩٣٧ بتهمة أنه جمهوري، وأن أنجب تلاميذه ذا الست عشرة سنة من العمر، والذي كان يعشق الشعر إلى حد الهوس، هرب في السنة نفسها إلى منطقة تحت نفوذ الجمهورية ليلتحق بالجيش الذي خسر الحرب. لا والديه رفائيل وفيليسا، اللذين ماتا بعد انتهاء الحرب، ولا أحد من القرية سمعوا عنه خيرا. كانت له سمعة مجنون لأنه يكتب وينشد أشعارا. كان اسمه أولاليو صيبايوس سواريث. في حال ما إذا كان هو صاحب هذه الكراسة، فقد كتبها وعمره ثماني عشرة سنة، ولا أظنها سنا تليق بتحمل كل هذا العذاب).

الهزيمة الثالثة: ١٩٤١ أو لغة الأموات

بارتباك يليق بمن يلقي تعويذة يعتقد أنها تقي من السحر،
رد خوان صينرا، مدرس الكمان الجهير، بالإيجاب من دون أن
يكون واعيا بأن تلك الإجابة أنقذت حياته وإن بشكل مؤقت.
سأل العقيد إيمار، وهو يتخلص من خموله، وقد شرع في
الاقترباب من المتهم يقوده شيء شبيه باهتمام عالم حشرات حين
تركيزه على حركة شيء متناهي الصغر.

- هل حقيقة تعرفت عليه؟

- نعم.

قصفه العقيد بصوت حاد:

- نعم سيدي العقيد!

- نعم سيدي العقيد.

كان خوان صينرا واقفا منذ الفجر، مرتديا ثوب عمل أزرق
وقميصا باليا يسمح بدخول الهواء وتدفق الخوف. هزاله
المفرط، وتفاحة آدم التي كانت تقفز مرتعبة كلما بلع ريقه،
وخمول همته الذي كان يجعل كتفيه يتقوسان إلى درجة تجعل
منه شيئا مقببا، حولته إلى ندبة إنسان عاجز عن أن يركز نظره

من دون أن يشعر بالغثيان.

أين؟

بسجن بورليير.

كان العقيد إيمار قصير القامة. تطل يده من حواشي الكم بقدر يكفي لكي يقبض بشكل دائم على سيجارة مشتعلة على طرفي سبابته وينصره اللذين كانا ينتهيان بأظافر ذات لون رمادي متسخ كأنها مشيطة بفعل حرارة التبغ. كان عنق ضامر، كأنه لطائر مشؤوم، يخرج من التلبيب الذي يتوج سترته الفضفاضة والبالية إلى حد لا يمكن تصوراتها لمحارب. على الرغم من ذلك، وكقابل يفيض حيوية إزاء تلك الشيخوخة، زين وجهه شارب ناعم أفقي، مواز بشكل تام للأرض، وهو إن لم يكن يكسبه ملمحاً شرساً، فعلى الأقل كان يحول دونه ودون الابتسام. بالإضافة إلى أوسمة، مختلف أنواع الأوسمة التي كانت تشكل درعا واقية ل صدره أكثر مما تشكل تشريفاً.

أمر بشكل قاطع:

- بسجن «بورليير»، سيدي العقيد!

بسجن «بورليير»، سيدي العقيد!

متى؟

نقلوه من مقر المخابرات السوفييتية بشامبيري في مايو

١٩٣٨. سيدي العقيد!

ومع أن هيئة المحكمة كانت مشكلة من ثلاثة عسكريين، فإن القبطان مارتينيث، والفارس ريويو توقفا عن طرح الأسئلة واتكأ

على ظهري كرسييهما تاركين بهذه الحركة لرئيسهما المباشر
فرصة توجيه الوقائع كما يريد.

إلى جانب المتهم، الذي ما من شيء كان يبقيه واقفا سوى
شعوره بالخوف، نجد الملازم الأول الونصو الذي كان ينجز بتعب
ظاهر مهام سكرتير المحكمة، والذي حينما لفت انتباهه إجابات
المتهم، أوقف بشكل مؤقت رسوماته المتداخلة الألوان التي تمثل
أعلاما موضوعة بعضها فوق بعض مشكلة حقلا لامتناهيا من
الرايات المنشئية كأن الريح لا وجود لها. كان جالسا على طاولة
مدرسية، وربما لذلك السبب اتخذ هيئة تلميذ مجتهد. نظر
إلى العقيد إيمان، ولما لم تلتق عيناه بعيني هذا الأخير، استغرق
مباشرة في عملية منح ظلال تتوج قمة آخر علم مرسوم. كان
أبهق وبيدنا، خاصيتان متنافرتان في العادة، ولكنهما التقتا في
هذه الحالة لمنح الملازم الأول شكلا شبيها بدمية من ثلج.
وأنت اسمك هو....

ذكر خوان صينرا اسمه، وتحاشى الإشارة إلى رتبته، وشرح أنه
كان ينتمي إلى هيئة الممرضين بمصلحة المسجونين. ثم يقل كل
الحقيقة، لكنه ما كان يكذب. «سنة ١٩٣٦ كنت أدرس بالمعهد في
السنة الثالثة بكلية الطب، لذا أسندوا إلي هذه المصلحة. سيدي
العقيد..»

غير أن العقيد لم يكن يعيره كبير اهتمام لأنه كان يبحث في
اللائحة التي تحت عينيه عن اسم المتهم. ثم يكن يقصد ربح
الوقت، لم يكن بحاجة إلى ذلك، لكنه كان يريد أن يعرف شيئا
إضافيا عن هذا المهزوم الذي كان سيحكم عليه بالإعدام وهو

الذي سبق له أن تعرف على ابنه. خوان صينرا ساما، ماسوني،
أشرف على السجن الشعبي، شيوعي، أعزب، ومجرم حرب. وُلِدَ
بميرافلوريس دي لا سييرا بمديرية سنة ١٩٠٦. ابن ريكاردو
صينرا، ماسوني، وسيرفاندا ساما، متوفاة.

وتحدثت إليه؟

نعم، في عدة مناسبات كانت آخرها اليوم الذي أعدم فيه.

ألح العقيد برغم توتره : سيدي العقيد!

في عدة مناسبات سيدي العقيد!

حينذاك اتضحت أفكار إيمار المضطربة مشعة وواخزة مثل قطع
فخار مهشم. كل صباح، لما كانت زوجته فيوليتا تساعد على لبس
حذائه والرداء الباهت اللون فوق كتفها المرتخيتين، كانت تكرر على
مسمعه «تذكر ميغيل الصغير». ولما كان مساعده ينقله بالدراجة
النارية ذات المقعدين إلى «محكمة مواجهة الماسونية والشيوعية»،
التي يرأسها، كان يفكر في ميغيل الصغير. كيف له أن ينسى ميغيل
الصغير؟ البطل المنتمي إلى سلالته الذي مات فقط لكي يتم الثأر له.
كانت عادة تقصير إجراءات المحاكمة تحول دون توقفه عند
بعض الأمور الدقيقة، ذلك أن العدالة العسكرية تجد لنفسها
حلا من دون ألوان، وربما لذلك، بدت عليه علامات الخجل
حينما أخبر السجين بأن ميغيل إيمار كان ابنه.

وعمّ تحدث؟

عنكم سيدي العقيد!

عن جنابكم سيدي العقيد! صحح مغتاضا العسكري المرتخي

ليحسم في كونه كان قاضيا قبل أن يكون أبا.

كرر صينرا بوداعة:

- عن جنابكم سيدي العقيد!

توقف الزمن للحظات، وظل الأعضاء الثلاثة للمحكمة من دون حراك، أسرى شرارة صمت وسكينة لم يشوش عليها سوى ارتعاشة خفيفة لذقن إيمار. كانت تفاحة آدم تعلو وتنزل كلما احتاج خوان لريق يخفف به جفاف فمه، وقد كانت الشيء الوحيد الذي يتحرك في تلك القاعة.

وعن الوطن، هل تحدث؟ هل تحدث عن إسبانيا؟
سأل فقط ليخفي التوتر الذي كان يصعد من حنجرتة، ويجعل ذاك الصوت السلطوي رقيقا بفعل الحشرجات التي تسبق الموت.

شعر صينرا بالخوف حينما أدرج بعض الحقيقة في إجاباته، كأن مثل هذا التقابل يمكن أن يشي به، غير أنه أكد أنه لم يتحدث عن إسبانيا. واستعاد الزمن مسيره: عاد السكرتير الأبهق لرسم الأعلام، ونظر أعضاء المحكمة بعضهم إلى بعض بتواطؤ متكئين على سندات كراسيهم مانحين لأنفسهم بضع لحظات للتفكير. كانوا قد استجوبوا وحكموا بالموت على مئات من أعداء الوطن الذين سئلوا جميعا في لحظة من اللحظات إن كانوا قد تعرفوا على ميغيل إيمار. وكانت الإجابة هي دوما نفسها. والآن، وبشكل فجائي، ما كانوا يعرفون كيف عليهم أن يتعاملوا مع إجابة خوان صينرا.

قاطعه الفارس ريوبو، الذي استحق عدة أوسمة رفيعة، قائلاً:
اسمع أنت، أيها الشيوعي الحقيق، هل تريد تقديم تفسيرات
أم سنرسلك حالا إلى مقبرة المودينا؟

لينتهي بتوجيهه نظرة خنوع نحو العقيد بحثا عن تزكية تلقاها بشكل ضمنى في صمت سلطوي ومرتبك.

لم يعد السكرتير المعتد بنفسه يرسم أعلاما لكنه ظل ينظر إلى الأوراق التي كان يضعها على اللوح المائل لمكتبه. وكان خوان صينرا هو الآخر في حاجة إلى إعادة بناء ذكرى دون ذاكرة، فلا الضعف ولا الخوف تمكنا من جعله ينسى القصة الحقيقية لميغيل إيمار.

كانت صورة للجنرال فرانكو بقبعة عسكرية وهو يبتسم بوحشية معلقة بالجدار الموجود في عمق القاعة إلى جانب صليب من خشب. وتلك القاعة الفارغة، التي يبدو أنها كانت في الأصل قسما بمدرسة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار وجود السبورة الضخمة المغطاة لكل الحائط في العمق، كانت تمكن من سماع حركية وضجيج وأصدااء غير متوقفة لصفق الأبواب ولأوامر صارمة وخطوات مسرعة. وفي المقابل، كان الصمت يسود في الداخل. وظل الجنود الثلاثة المكلفون بالحراسة مثل تماثيل في قاع القسم، لا تماثيل حربية، بل تجمدوا بفعل التعب، ومن دون أن يكون لوجودهم أي بعد ملحمي.

تذكر خوان عدة أشياء دفعة واحدة، وأحس بخوف كان من القوة بحيث لم يقدر معه أن يظل منتصب القامة. أسند يده على طاولة السكرتير الذي كان على يمينه، محاولا ألا يستسلم للدوار، ولكن دفعة من يد راسم الأعلام جعلته يفقد توازنه ويسقط على جنبه فوق الدفتر. تلقى ضربة أخرى، هذه المرة في الظهر، في الوقت الذي كان الأبهى يصرخ فيه: أنت! قف يا ابن العاهرة!

كان بإمكانه أن يستجيب بسرعة لكنه استرجع توازنه بصعوبة مؤلمة. «حاضر سيدي!»، بدا له أن يقول. ترك نفسه يسقط بنعومة جفون عين شارب الأثير، وظل ممدا على الأرض مطويا على نفسه مثل نبتة الخيزران.

كان البرد قاسيا.

من جهة بفعل الجوع، ومن جهة بفعل الألم، ومن جهة بفعل الخوف، ومن جهة بفعل وضعيته كمهزوم، كل ذلك ترك خوان صينرا في حالة إغماء جزئي تخترقها الحركات لا الكلمات. جره رجلان من رجليه نحو مكان رطب ومظلم، حيث كان يوجد أشخاص آخرون لا يتحركون. انغلق الباب محدثا ضجيجا. وقبل أن يفقد الوعي بشكل تام، مرر أحدهم ذراعا عبر ظهره وسأله: خوان، ما الذي فعلوه بك؟ أحس بنفسه محميا لما سمع من يناديه باسمه وترك اللاوعي يلذه.

حين نقلوه ليلا إلى السجن بمعية قافلة من المعتقلين، لم يعرف لماذا تم إرسال الجميع إلى الدهليز الرابع في حين أرسل هو إلى الدهليز الثاني. كانت للسجن تراتبية مكرسة بشكل جيد: في الدهليز الثاني كان ينتظر الذين سيحكم عليهم بالإعدام، وفي الدهليز الرابع كان الذين تم الحكم عليهم يعدون الدقائق.

من ضمن ما يقارب ثلاثمائة رجل مكდسين بالممر الذي تم تحويله إلى زنزانة جماعية، أكثر من النصف أحاط به عندما دخل، ويادروه بأسئلة تسعى إلى تفسير ما لا يفسر: هل أطلقوا سراحك؟ ما الذي جرى لك؟ كيف تمكنت من

الحصول على حريتك؟ ما الذي فعلوه بك...؟ كان من المفروض أن يكون هنالك سبب بالغ الوجاهة يسمح بالعودة إلى الدهليز الثاني.

لا أعرف، فقدت وعيي وأحضروني هنا مرة ثانية.
هل عذبوك؟

السبب هو الخوف على ما أظن.

لو كان لديه نفس كاف، لحاول تفسير ما حدث، لكنه لم يتغلب على الخجل والتزم الصمت. في مواجهة أمر لا تفسير له، تكون المجازفة بتقديم سبب معقول مرادفا للكذب؛ لأن الذين يحتاجون إلى تدبير الحقائق من عاداتهم أن يسموا الغموض كذبا. لهذا التزم الصمت حتى يتمكن إدواردو لوبث من ترتيب الوقائع من دون حاجة إلى فهمها.

كان إدواردو لوبث عضوا بالمكتب السياسي للحزب الشيوعي، وجعله عمله منسقا للثورة بمدير يد يحظى بشهرة لا بأس بها خلال الأشهر الأخيرة للحرب. اعتُقل في الجبهة الجنوبية ولم يكن ينتابه أدنى شك فيما يتعلق بالمصير الذي ينتظره. وعلى الرغم من ذلك كان يحاول بكل شجاعة أن ينظم حياة السجناء ويوزع مهام لمساندة أكثرهم يأسا، وعلى الخصوص تقديم تفسير سياسي لآلامهم. لذلك كان يحرص على أن يسود انضباط معين خلال النقاشات الجماعية التي كان هو نفسه يشجعها، ويطلب من الحاصلين على تكوين جيد أن يقدموا عروضاً حول مواضيع يمكن أن تثير اهتمام السجناء. وللتخفيف من حدة يأسهم كان يردد فكرة أنهم كانوا هناك لدفاعهم عن شيء عادل. لا أحد كان

يحبس بالعزاء لذلك، لكنهم كانوا كلهم ممتنين لوجود شخص
يطمح إلى أن تبقى تلك الأرواح حية.

وبما أن إدواردو اعتبر إجاباته مقبولة، اعتبر أولئك الرجال
الشاحبون الناحلون المشلولون بفعل البرد هم أيضا أنهم قد
أشبعوا فضولهم. يكاد الخوف يفسر كل شيء.

ذهب خوان سينرا ليقبع إلى جوار رفاقه محتفظا بصحفة
الألومونيوم على صدره. كانت الإشارة إلى أنه مازال سيأكل
مرة أخرى، وهذا أمر أشبه ما يكون بأن يكون المرء حيا. ألم
الضربة التي وجهها له الأبهق توزع إلى ما لا نهاية له من الآلام،
وبالإضافة إلى ذلك، كانت الذاكرة تضغط عليه بأحزان أخرى
بالغة العقم مثل الحنين.

سبق أن كتب لأخيه ليودعه ولم يوجه له أية تحية، وقد
ندم على أنه قد فعل ذلك. كانت لديه عدة أشياء يود قولها له،
ومع ذلك فإنه اكتفى بالإشارة إلى ذكريات مقتسمة كأن المصدر
الوحيد للتواطؤ كان هو الذاكرة. الآن، بعد أن مثل أمام هذه
المحكمة المسوخة، الآن وقد اقترب من الجحيم، عرف أنه قد
أخطأ حينما أغفل الحديث عن العواطف.

اشتاق إلى أخيه المراهق، البعيد عن كل هذا، المستعد منذ الآن
لتأمل كل هذه الفضاعات وغير المؤهل بعد لإدماجها في حياته.
أصبح الصمت مضاعفا، وكل الأحاديث ذابت في ظلام مملوء
بأصداء بعيدة. قبل حلول الفجر، لن تكون هنالك حياة، والحياة
كانت تبدأ حينما تتم المناذاة على الموت. كان السجناء يعرفون
أنه عند الساعة الخامسة صباحا وانطلاقا من الساحة، سينادى

على مجموعة من الأسماء والألقاب، وسيصعد المنادى عليهم على متن شاحنات للذهاب إلى مقبرة لالمودينا ولن يعودوا أبدا. لكن هذه الأسماء تخص الموجودين بالدھليز الرابع. أما بالنسبة إليهم، أصحاب الدھليز الثاني، فقد كان هناك إجراء ينقصهم: المثول أمام العقيد إيمار ليتلقوا الحكم الذي لا رجعة فيه، مما كان يعني أنه مازال هنالك وقت، والوقت يمر فقط بالنسبة إلى الأحياء.

عرفوا بوساطة الفارس كابيلان أنه ليس كل المحكوم عليهم بالإعدام قد تم بالفعل رميهم بالرصاص. تدخلات عائلية، توصيات خاصة، قرارات اعتباطية بالعفو، جعلت عدد من أعدموا يتناقص مع مر الشهور. وقد شاع أن عديدين منهم ذهبوا من الدھليز الرابع إلى سجن ضويسو أو أوكانيا أو يورغوس. لذا كانوا يفكرون فقط في أن الزمن سيمر، بكل البطء والعنف اللذين يروقان له، غير أنه سيكون هنالك أسبوع إضافي، يوم إضافي، بل حتى ساعة إضافية. وهذا هو بالتأكيد ما جعلهم جميعا يحاولون عدم إثارة الانتباه، وأن يمتزجوا مع اللون الرمادي المتسخ لجدران الزنزانة الجماعية.

في الأشهر الأولى، والبرد ما سكن بعد عظامهم، كان هنالك دوما أحد يقوم باعتلاء قضبان النافذة المطلة على الساحة ويصرخ: «تعيش الجمهورية!» حينما كان أصحاب الدھليز الرابع يمتطون الشاحنات في الفجر. «وداعا أيها الرفيق، وداعا أيها الصديق. سننتقم لكم». غير أنه، وبشكل تدريجي، بدأت هذه الحركات تخفت، أصبحت غامقة والفجر أصبح أكثر قتامة.

في اليوم التالي، لم يستدع خوان صينرا إلى المحكمة. ذهب آخرون ولم يعد أحد. تناول خوان الحساء الدافئ مرتين إضافيتين وساعد شابا لم تنبت لحيته بعد على إزالة القمل بعد أن امتلأ رأسه بالبتور من كثرة الحك. قال له: إذا واصلت بهذه الطريقة ستصبح أصلع. لف الشاب حول رأسه شيئا لم يتبين خوان صينراما هو، ولكنه ابتسم كأن الأمر أدخل عليه سرورا ما. قال له أحدهم إن العريف سانشيز يملك مشطا وشرع بعناية يمشط بيض القمل من شعر الشاب الذي، اعترافا بالجميل، أراه صورة خطيبته.

- إنها مثيرة. أليس كذلك؟ هي من سيكوفيا، ولكنها أتت لتقدم خدماتها بمدير يدوها أنت ترى... وقام بحركة بذيئة وحنونة في الوقت نفسه.

لم يتمكننا من مواصلة الحديث لأن أحدهم طلب حضوره قرب الحاجز الموجود بالمدخل. أرجع له عريف أول هرم بفعل الخوف وسقطت أسنانه بفعل الجوع ظرفا مفتوحا بعنوان مكتوب بالقلم. تلك كانت الرسالة التي كتبها خوان إلى أخيه قبل أن يمثل أمام العقيد إيمار. الآن يرجعونها إليه مفتوحة وبتشطيبات.

هذه الرسالة لا يمكن بعثها. وستكون محظوظا لو تمكنت من كتابة رسالة أخرى.

من قال ذلك؟

الفارس كابلان.

فيما عدا «أخي العزيز لويس»، وتذكرني دائما، أخوك خوان، تم شطب كل الجمل بقوة، بما فيها تلك التي تتحدث عن البرد

والصحة التي ليست على ما يرام، عن وداعة أمه المتوفاة أو عن أشجار الحور الأسود بمنترهات ميرافلوريس. لم يكن هنالك حيز لما هو إنساني. لم يكونوا يريدونه أن يودع أحدا. عاد برفقة الشاب ذي بيضات القمل، علق بفكاهة على خطه، وتابع المهمة التي كانت قد توقفت.

تأمل خوان يديه العاجزتين عن اقتحام ذلك الشعر المملوء بالقمل. الآن قضت تشققات البرد على كل مهارة. هم الآن ماهرون فقط في تسريح الشعر. ومع ذلك حاول أن يكون حنوناً ويده تلمس رأس الشاب الذي لم تنبت لحيته والذي لم يقم بأي شيء لتجنب تلك الحركة. تحدثا.

كان يدعى أوخينيوباث. عمره ستة عشر سنة، من مواليد برونيطي. كان خاله مالك الحانة الوحيدة بالقرية حيث كانت تعمل أمه وتلقى برغم عامل القرابة معاملة مهينة، وهي التي تفانت في التفرغ لمهام المطبخ والتنظيف بالمحل في قرية بمثل تلك الحقارة. لما اندلعت الحرب انتظر أوخينيوباث أن يعلن خاله انتماءه ليلتحق هو بالطرف الخصم. بهذه الطريقة أعلن ولاءه للجمهورية.

كان له وجه طفل عاجز عن أن يكبر. كان الظل البئيس لذلك السجن لم يكن له عليه أي تأثير. لم يكن هنالك في وجهه الذي لوحته الشمس أي خط مستقيم أو أي خط ذو زاوية لأن الصرامة والحزن كانا ممنوعين عليه أيضا. بدينا وذا قامة متوسطة الطول، كان يتحدث دوما ثانيا شفثيه كأنه نادم على قول ما كان يقوله. ولكن الأمر لم يكن كذلك

إذ إن عينيه الزرقاوين كانتا تنظران بتركيز في عين مخاطبه محولا أي تفاهة إلى حقائق بمثل قوة اللكمات. شيء ما له طعم الصداقة والحنان كان يشع من جملة التي كان يزينها، حتما، بتعابير من اختلاقه وبيعض التجديفات.

شارك في الحرب بدون مثل عليا كأنه يلعب، وكان همه ألا ينتصر الخصم، ودون أن يتأمل الأسباب التي جعلته يتخذ الموقف الذي اتخذه. وكما هو الأمر في أي لعبة، طبق القواعد حتى النهاية مطلقا الرصاص باعتباره مقاوما لما دخل عسكر فرانكو مدريد آخذين معهم كل ما وجدوه في طريقهم. من سطوح البناءات كان يضيق الخناق على جيش الخصوم بخطط حاصرت المنتصرين حتى اليوم الثالث للنصر. في الأخير قبضوا عليه، ليس وهو يحارب، بل خارقا وقف إطلاق النار الذي فرضته السلطات الجديدة عندما كان ذاهبا لرؤية خطيبته بباب إحدى العمارات بشارع سلمنكا حيث كانا قد أقاما سرير زوجيتهما المظلم، المنتظم والصامت.

ومع ذلك، فقد كان راضيا عن نفسه إذ استمتع بالتحكم، خلال ثلاثة أيام، في وضع معايير اللعب عبر تحديده من كان طيبا ومن كان سيئا، فحاكم وأطلق سراح البعض، وحكم وأعدم، متبعا نظاما كان يعتقد أن آخرين هم من اخترعوه.

الآن، وهو في السجن، عرف أن كل ما وقع كان اسمه الحرب، وأنه على الرغم من إتقانه التسلل من أفاريز المنازل وخفته لحظة القفز من سطح إلى آخر وانتشائه كلما أطلق رصاصا على منافس له، فقد انهزم. وما كان يحز في نفسه أكثر هو أن

خطيبته المنتمية إلى صيكوفيا كانت حاملا. «بما أنها ساذجة ،
ربما ستظن أنني على علاقة مع امرأة أخرى...» أنهى بشجن.
عرف خوان أنه في ظروف أخرى كان سيعزه. الآن كان
يكتفي بأن يقدم له رفقته الشبيهة بشيء ناعم وأساسي إزاء
لزوجة الحزن الجماعي. لم يكن أوخينيو يعتبر الخصوم أعداء.
كان يعتقد أنه بما أن الهزيمة كانت من نصيبه هذه المرة، فإنه
سينتصر في فرصة قادمة. كان الأمر كأنه لعبة حظ، دون انتقام
ودون مدانين. «لا أتبرم من الخسارة مثل كل هؤلاء».

في اليوم التالي، كان خوان الأول على الثلاثحة. كان من
العسير الحصول على ورق وقلم، إلى درجة أنه لم يتمكن من
توديع أخيه. هذه المرة بدا له الموت متسرعاً.

صحبة الذين تمت المناذاة عليهم شكل صفا ينزل نحو
الساحة حيث تقف شاحنة صغيرة لنقلهم إلى محكمة العقيد
إيمار. من مروا قبله عادوا كلهم محكومين بالإعدام. لما جاء دوره،
ذهب خوان صينرا عن طيب خاطر إلى مواعده مع المحكمة. كيف
يتم قتل ميت؟ هذه الفكرة أعطته مظهراً يشي بالأنفة وإن لم
يشعر من قبل بأنه على هذه الدرجة من الانهزام.

عند دخوله إلى المحكمة، تبين له أن كل شيء كان كما المرة
السابقة: العقيد إيمار وعلى جانبيه القبطان مارتينيس
والفارس ريوبو على المنصة، فيما كان العسكري الأبهق قبالتهم
جالسا على كرسي مدرسي ومنهمكا في وضع ظلال على أعلام.
بيد أنه قرب الباب المؤدي إلى القسم، جلست امرأة متقدمة في
السن على كرسي متهالك، مرتدية معطفاً من فرو أستركان بال،

وبحقيبة يد في حجرها وحركات صارمة، وقد تابعته بنظراتها. قدم انتماءه بأمر من السكرتير الأبهق وظل واقفا قبالة المنصة متجنباً أي شكل من أشكال التصلب يمكن أن يؤخذ على أنه وضعية وقوف عسكري. أوقفت حركة من العقيد القراءة الروتينية لللائحة التهم التي يتابع بسببها. ثم ساد صمت لفترة: هكذا إذن، فأنت قد تعرفت على ميغيل إيمار في سجن بورليي..

تظاهر العقيد بأنه كان يبحث عن أوراق ما بينما كان ينتظر الإجابة التي تأخرت في الوصول.

ولماذا تتذكره بين كل هذا العدد الكبير من السجناء؟
لأنه كان ماهراً في القيام بالألعاب السحرية.

صرخ ريوبو:

- سيدي العقيد !

سيدي العقيد !

غير أن عيني العقيد كانتا تبحثان عن عينيْن أخريين في قاع القاعة، وخلال بضع لحظات اكتسى مظهر العسكري حالة من الضعف تشبه حالة آنية مهمة. قام بحركة تواطؤ تجاه الفراغ، ومن جديد، وجّه نظره العكرة صوب خوان صينرا.

ولماذا كان معتقلاً؟

عرف خوان أن الساعة ستحين، وأن عليه أن يجيب عن هذا السؤال. أحس بوهن كبير، وكان يكلفه الشيء الكثير أن يفكر مع تجاوز الألم وهو يعلم أن ميغيل إيمار قد اعتقل وحكم عليه لأسباب مدنية لا علاقة لها على الإطلاق بالحرب.

ترويج أدوية فاسدة أدت إلى وفاة مريض، سرقات لمواد غذائية عبر التسلل إلى مستودعات عسكرية، اتجار غير مشروع في البنزين والمحروقات، وجرائم أخرى شجعت عليها فوضى الحرب في مدينة مثل مدريد حيث انصب الاهتمام فقط على ما يجري في الجهة الأخرى من تحصيناتها.

كان الشباب يموتون في المتاريس، والقذائف تصيب المناطق الهامشية، لذا فإن الخوف من الهزيمة وضرورة التستر عليه كانا يمثلان الجزء المتبقي والقليل مما كان يعرف باسم بالسلطة.

وفي الأخير اقترف جريمة قتل.

أجاب خوان وهو يعرف أنه يكذب:

لأنتمائه إلى الفرقة الخامسة سيدي العقيد !

لأنه بطل، يا ابن العاهرة، لأنه بطل !

صرخ ريوبو ذو الجسم المتشحم باحثا عن مباركة من رئيس المحكمة. فوجئ خوان بالطريقة التي كانت تتغير بها نظرة الملازم الأول. عندما كان يوجه نحوه صرخاته، كانت عيناه تحمران، وبعد بضع ثوان، وهو ينظر بشكل جانبي إلى رئيس المحكمة منتظرا تزكيته، كان الغضب يتحول إلى خضوع ترشح منه الدهون. غير أن هذه المرة، حركة خفيفة، تكاد تكون حركة أسقف، بيد مغطاة بحاشية الكم، قاطعت الكلام الفارغ والحرار. بالإضافة إلى ذلك، كانت عينا العقيد تبحثان مرة أخرى في قاع القاعة، وتأخروقتا لا بأس به ليتخلص من سطوتهما. كانت سدلتا أنف العقيد تنفتحان وتنغلقان بيسر

عند التنفس، وتمكن خوان من أن يلاحظ كيف أن الشعيرات التي تطل من الثقبين تتبللان بلزوجة لامعة وثخينة. هل كان يبكي؟

في الأخير سأل العقيد في النهاية مستعيدا خيط الحكاية : ولهذا كان عليكم قتله؟

قال خوان صينرا، كأنه يحدث الخواء، إنه كان فقط موظفا بالقطاع الصحي للسجون. لذا فهو لم يقبض على ميغيل ولا حاكمه، وبالطبع لم يحكم عليه بالإعدام. ثم أضاف: فقط تحدثت إليه عدة مرات سيدي العقيد!

لم يكن الأمر صحيحا. تذكر جيدا ممن يتحدث لأنه كان من ضمن الحالات التي لم يتمكن رعب الحرب نفسه من طيها، فميغيل هذا قد قتل راعيا من قرية فوينكارال ليسرق له بعض الخراف ويبيعها بعد أن يتلاعب بأسعارها. غير أن ابن ذاك الراعي، وكان طفلا صغيرا، سمر له مذرة في المعدة وكاد يموت. اعتنى به خوان صينرا وناولته أدوية بعد أن خضع لعملية جراحية تمت بالمهارة التي توفرها الحرب للحفاظ على الجنود. وفي فترة النقاهة، أعلن ميغيل إيمار استعدادده لتقديم معلومات مقابل إخلاء سبيله، وسرد ما كان يعرف عن منظمات المنحرفين بما فيها تلك التي تزعمها، وحكى شيئا استعمل للضغط على أعضاء من الفرقة الخامسة كانوا يقومون بعمليات داخل مدريد المحاصرة. وعلى الرغم من كل ذلك، أعدموه قتلا بالرصاص. وسألت من قاع القاعة السيدة المرتدية معطف فرو أستركان بال:

- وعن ماذا كنتما تتحدثان؟

التفت خوان وراها واقفة، تتقدم ببطء وهي تنظر بتركيز إلى عينيه. كانت تحتفظ بحقيبة اليد في حضنها كأنها شيء ضعيف يتعين حمايته.

قال العقيد متوسلا:

- فيوليتا، بحق الإله!

غير أنها تشبثت بسؤالها:

- وعن ماذا تحدثتما؟

توجه خوان صينرا نحو رئيس المحكمة مستأذنا أن يجيب، وانتظر أن يتلقى حركة تسمح له بأن يقوم بذلك. أذن له العقيد أن يجيب. كان خوان يحاكم على أساس أنه مجرم في حق الوطن المسكين وهو يواجه الآن ألم أم ثبت أن ابنها قاتل. وكان على وشك أن يتعاطف معها.

قال خوان:

- لا أعرف، تطرقنا للعديد من المواضيع.. طفولته، أبويه... أمور السجن، تحدثنا أحيانا عن الحرب. وبهذه الإشارات الملتبسة استهل خوان صينرا كذبة مطولة وكثيفة انبثقت من لحظة شفقة لتتحول إلى مرتكز حياة.

تلك المرأة ذات الملامح غير الواضحة والتي ينعكس عليها ضوء النافذة الموجودة وراءها، القابضة على حقيبة يدها كأنها تحول دون طيرانها، كانت تصوغ أسئلتها بصرامة لا تشبه على الإطلاق صرامة القضاة. هي لم تكن تريد أن تدين أو تبرئ، بل فقط أن تميز بين الحقيقي والمزور. ربما كانت تريد أن تعرف. من

شفتيها الجامدتين الشاحبتين والمتوترتين، توالى الأسئلة دون قلق ودون اهتمام بالإجابات.

صارمة، بشيب أتى قبل الأوان، ودون حنان الأمهات، في حالة حداد وحزينة، تبدو تلك المرأة تجسيدا للألم خاصة لمن يريد رسم صورة للانتقام. ومع ذلك، فقلق نظرتها ولامبالاتها بكل ما يشوش على ذاكرة ابنها، واللؤم الذي كانت تبحث به عن الكذب، كل ذلك حولها إلى شيء أشبه ما يكون بأم محطمة.

كان له أثر حرق سببه له، وهو مازال طفلا، زيت حارق. هل عرفت أين؟

في الضخذ اليمنى، في الجهة الداخلية. كان علي أن أحقنه بمسكنات بعد العملية، لهذا أعرف ذلك.
اية عملية؟

استبدل خوان مذرة ابن الراعي بالتهاب الصفاق، أو شيء من هذا القبيل. وأضاف أنه لما وصل إلى بورلي كان عمليا قد تعافى وإن كان مازال في فترة نقاهة ومرة أخرى بأمل أن يلقي التعزيمية، بحث عن كلمة السر: كان مريضا متفهما.

وانطلق الجبل. المرأة الغامضة التي يرسم صورتها ضوء النافذة الكبيرة، خيال الانتقام، تقدمت ببطء نحو خوان محدقة فيه وغير مصدقة، وسط صمت كل الحاضرين، إلى أن وقفت بين المتهم والسكرتير الأمهق. لم تنفع في شيء أوامر العقيد إيمار الرخوة، ولم ينفع تكراره لجملتي «بحق الإله»، و«فيوليتا من فضلك»، لأنها كانت متعودة على أن يتظاهر

زوجها بالسلطة، لأنها كانت تتحدث عن ابنه الذي لم يكن لها عنه أي خبر باستثناء احتلاله الرتبة الثالثة في لائحة من أعدموا بعد محاكمة سريعة. والآن أتاحت لها فرصة أن تعرف، وكانت ستشفي غليلها لمعرفة التفاصيل، لولا أن بكاء صادرا من الحلق وقد تحول إلى صوت غير متوقف ولا وجود له في اللغة القشتالية، وإن كان له وجود في لغة الحيوانات التي تبكي، حال دون أن تصوغ مزيدا من الأسئلة.

لم تقترب من خوان ولم تمد نحوه ذراعيها، لكنهما ظلّا وحيدين وجها لوجه، من دون قضاة، ولا متحدثين باسم المحكمة، ولا سكرتير أمهق، ولا مكلفين بالحراسة. الآن، كان يضيئها النور الذي يواجهها ولكن، على الرغم من ذلك، ظلت معتمة. وفي الأخير تمكنت من النطق بشيء مفهوم: «كان ابني».

غادر العقيد مكانه خلف المنصة وخطا خطوات مسرعة وغير متناسقة إلى أن وقف إلى جانب زوجته التي، على الرغم من أنها في نفس طول قامته، فإنها كانت تعطي الانطباع بأن حجمها أكبر. سعى إلى أن تكون حركة من يده صارمة وسلطوية. «يكفي بالنسبة إلى هذا اليوم».

أمر الفارس ريويوبان يتم أخذ السجن. والجنديان النحيبان اللذان أتيا به بخشونة، بخشونة أيضا أخذه إلى الزنزانة التي كان يوجد بها المحكومون بالإعدام من طرف المحكمة التي يترأسها العقيد إيمار. ومثلهم جميعا التزم الصمت.

الصمت فضاء، فجوة نلجأ إليها وإن كانت لا تضمن لنا الأمان. الصمت لا ينتهي، ينقطع، سمته الأساس هي الهشاشة،

والبشرة المخاطية المحيطة به هي شفافة: تسمح بمرور كل النظرات. كان على خوان أن يواجه نظرات رفاقه في الدهليز حينما تم اقتياده من جديد، وهو تحت وقع مفاجأة كبيرة، إلى المكان الذي يحتاج الموت فيه إلى إجراء إضافي.

غير أنه، ولأسباب متصلة بتراكم العمل لدى المنتصرين، أعيد إلى الدهليز في وقت متأخر جدا. تمكن من استعادة صحفته - أو صحيفة آخر كان سيموت - ودون تناول العشاء تكوم إلى جانب الحائط المظلم ورغب في التخفيف من ارتبائه بأن يحلم بأنه شيء فريد، أي شيء، ولكن شيء فريد : حيوان، ماء، حجر، أرض، دودة، دمة، جبان، شجرة، بطل... وغلبه النوم دون أن يكون بحاجة إلى أن يفسر لماذا كان لا يزال على قيد الحياة. احترم الجميع صمته. لا أحد سألته. تخيل أشياء مستحيلة وروائح وأصواتا، في حين كانت تتداخل في أحلامه فضاءات وألوان. اعتبر كل هذه الأحاسيس شكلا من أشكال التعود على عدم البقاء حيا، وحاول أن يتخيل اللغة التي يتكلم بها الهالكون. الضعف له هذه المزايا.

في اليوم التالي استيقظ مهووسا بفكرة أن يكتب أخاه مرة أخرى.

كان يعرف كيف يمكن العثور على قلم وورق لكتابة رسالة أخرى إلى أخيه. حدس، من دون أن يعرف لماذا، أن لديه متسعا من الوقت، ووجد فجأة نقاط تشابه بين الكتابة والمداعبات، وبين الكلمات والمحبة، وبين الذاكرة والتواطؤ. في سجن المهزومين ذلك، كان هنالك منتصران. كانا يتعايشان مع السجناء، لكنهما

ما كانا سيمثلان أمام المحكمة. كانا يرتديان لباس الجيش المتمرد ويتباهيان بالسيردائما مسرحي الشعر ببرنيطة عسكرية وبريش زينة أحمر يسجل دوما الإيقاع الحربي لخطواتهما. وعلى الرغم من هزالهما، فإن بريقا في حركاتهما كان يميزهما عن بقية السجناء. معلم مسن، صديق لنيكرين، عجز عن أن يتحمل الجوع وفصل الشتاء، أطلق عليها لقب إسبوث ومينا، برغم أنهما كانا شخصين اثنين، فإن تصرفهما كان تصرف شخص واحد.

في الحقيقة كانا معتقلين. خطأ ما فادح - لم يعترفا به قط - أتى بهما إلى ذلك الدهليز، حيث كانا يتمتعان بسلطة ما على السجناء ويتواطؤ خنوع مع السجنائين.

نشأت حولهما حركة بئيسة لتبادل المؤونة: بفضل وساطتهما كان يتم الحصول على وقود جاف للمصابيح، قلم للكتابة، كمية من التبغ، ورق للفسجائر، وتوزيع اعتباطي للخدمات كان إيصبوث ومينا يدبرانه كذلك مقابل أشياء بئيسة: خاتم زواج، ولاعة، كيس ذهبي لحفظ الأسنان، أو أي شيء آخر قيمته هنا أكبر من قيمة كائن إنساني.

حصل خوان من إسبوث على ثلاث ورقات ومظروف مقابل أحد جواربه وأعاره مينا قلما من خشب لمدة ثلاثة أيام.

«أخي العزيز لويس

كتبت رسالة لأودعك والآن أنا سعيد أنهم منعوني من أن أبعثها لك، ربما لأن لحظتي لم تحن بعد. طالما أستطيع أن أكتبك فذلك يعني أنني لازلت على قيد الحياة. حاكموني لكنهم لم يحكموا عليّ. أنا محتجز في منطقة حدودية.

أعرف أنه حينما سيتعذر عليّ مكاتبك، كاللنا سلكون وحبدا
على الرغم من أن ميرافلوريس قرية صغيرة وجميع سكانها
هم، بمعنى من المعاني، أقرباء لنا. أنا متأكد أنهم سيقفون إلى
جانبك. ابحث عن عمل، ولكن ليس في ورشة النجارة لأن رؤيتك
لن تتحملا النشارة التي تتطاير في الهواء. يمكن للعم لويس،
ربما، أن يمنحك فرصة للعمل بمحل بيع المواد الغذائية. آسف
أنني لا أستطيع التكفل بمصاريف دراستك. ولكنك إذا ما تمكنت
يوما ما من بيع أراضى والدينا، خصص كل ما ستحصل عليه
من مال لتكوين نفسك. سوف يساعدك السيد خوليو المعلم في
تدبر هذا الأمر.

على الرغم من أنه خصص اليوم كله لكتابة الرسالة،
فإنه تمكن فقط من صياغة فقرة واحدة. فإذا كان الزمن في
السجن لا متناهايا، فإن انتظارات ورتابات قاسية تتخلله:
صفوف لا نهاية لها للحصول على وجبة من البطاطس
المغلية، للذهاب إلى المرحاض أو للحصول على حساء العشاء.
اصطفافات لا تنتهي لعد السجناء ثلاث مرات في اليوم،
نوبات نزقة للقيام بتنظيف الدهليز الذي، برغم ذلك، يظل
دوما متسخا، بالإضافة إلى أنه في ذلك الصباح كان عليه أن
يحضر رفقة سجناء آخرين إلى العرض الذي قدمه إدواردو
لوبيث حول فائض القيمة ومضاعفاتها على وضع البروليتاريا
العالمية. اعتاد خوان أن يصف المشاركين في هذه اللقاءات،
التي تتم بأصوات منخفضة ولكن بتواطؤ طائفة دينية، بأنهم
جثث ذات اطلاع.

تفتق الغروب عن ظلام متعدد وامتلأ الهواء بظلال متجمدة.
لا أحد كان لديه وقود.

استيقظ خوان عندما أتى الهواء البارد بصوت لائحة المحكوم
عليهم بالساحة. لا أحد تحرك على الرغم من أنهم كلهم سمعوا
تردد الأسماء، الواحد بعد الآخر دون إجابة؛ لويس فاراخادو،
أنطونيو لويث إبيان، خوسي مارطينيث لوبث، ألبرطو مينكيز...
ذلك الصوت القوي، ولكن الرقيب، كان مثل الدوي الذي يحدثه
تماس عود ثقاب مع محرك اللعبة؛ كان يضيء الواقع.

بعد توزيع شعير الجعة الذي كان أحيانا يقوم مقام الفطور،
اقتربت مجموعة من السجناء من خوان وسأله إدواردو دون
مقدمات عن أسباب إعادته في كل مرة إلى الدهليز الثاني.

لا يقر قرارهم على محاكمتي. يبدو أنني شرير.
الا يكون مرد ذلك إلى أنك تحكي أشياء لست متأكدا منها؟
كان خوان ينتظر أي سؤال باستثناء هذا.

لا أعرف شيئا ولا أحد يسألني. ذلك القاضي العصبي يجاري
زوجته المجنونة. إنها تريد أن تعرف، بأي ثمن، ما الذي وقع لابنها.
وما الذي وقع؟

أعدمناه رميا بالرصاص. كان حقيرا. أقول لهم أقل ما يمكن
قوله لأرى إن كانوا سيتركونني أعيش بضعة أيام إضافية. هذا
كل ما في الأمر. حينما سيكتشفون أمري سأذهب أنا أيضا إلى
الدهليز الرابع. لا تتضايق.

على خلاف سجناء ذلك الدهليز الذين كانوا نحيفين وهزيلين
بسبب ظروف السجن، كان إدواردو نحىلا منذ ولادته. كان له

صدر بارزوأنف ذو مواصفات عبرية يمنحانه طابعا ذا بعدين مثل ما للدب الذي يتغذى بالنمل. غامق مثل كتاب قداس، كان قادرا على أن يمر من دون أن يثير الانتباه أمام حلقات النمامين حيث كان يحاكم من يحكم ويتم الانتصار على المنتصرين.

اعتبر خوان أن المحادثة قد انتهت لأن الاشتغال الآلي للتراتبية المعمول بها خلال السنوات الماضية كان يصعب عليه فهمه. كيف يقدم أموات على طلب تفسيرات من أموات آخرين؟ خلال يومين، توقفت المحاكمات وتقاسم الشاب ذو بيض القمل وخوان ذكريات وتواطؤات. كان أوخينيوباث قد بدأ يعرف معنى الحياة في مستهل الحرب. حتى ذلك الوقت، كان يعيش كيفما اتفق ببرونيطي يدرس كدس الحب في فصل الصيف ويحرق في موسم البرد ويزرع القرطمان قبل قدوم الأمطار. لم يذهب قط إلى المدرسة، ولكن كان يكفي أن ينظر إلى الدجاج ليميز بين الدجاجات التي تبيض وبين تلك التي تصلح لإعداد حساء فقط، وليعرف أية نعجة كانت ستلد ولادة صعبة، وأي سلوكي يصلح لصيد الأرانب الصغيرة من دون قتلها. لم تكن أمه متزوجة وقد حملت من صاحب الفندق الذي كان يتباهى بأنه لم يترك أي عذراء واحدة من فياسيوسا إلى نافالكارنيرو. لم يقبل قط أن يناديه أوخينيو أبي.

واستجابة لحديثه، حاول خوان أن يخبره عن أخيه وعن حياته بميرا فلوريس، غير أنه لما أراد أن يتذكر، لم يجد سوى عواصف من الثلج، لأن كل ما تبقى كان بمنزلة مرتع للنسيان. إذا كان المثل أمام العقيد إيمار قد تأجل لسبب من الأسباب

فإن شعورا من البهجة الخفيفة خيم على الدهليز الثاني. وإذا أضيف إلى ذلك، كما حدث في اليوم الثاني، أنه لم تكن هنالك لوائح تخص الذين سيركبون شاحنة الموت، فقد برز الأمل من خلل شقوق الخوف، وتحول إلى بلسم قادر على التخفيف من وقع البرد والجوع. لذا، وبالكاد انتبهوا إلى ذلك، ظهرت على الوجوه ابتسامات خفيفة وحركات صامتة توحى بالاطمئنان، شرعت، بالتدريج، في تهدئة كل دوار.

كان يوما عظيما. تبادل أوخينيوباث وخوان من جديد بعض التفاصيل الحميمة. اعترف له الشاب ذو بيض القمل أنه كان قلقا لما أصاب جسده. فكر خوان: «ذلك أنك ميت بالفعل»، غير أنه واساه بأن قال له: غياب من تحب أثر فيك. ربما كان الأمر كذلك.

في الصباح التالي، كان خوان يحاول ألا يفكر في أي شيء، ألا يرى أي شيء، ألا يشم أي شيء خلال وقوفه بالصف قبالة مراحيض الدهليز الثاني. كان مكانا قتنا، مغطى بالماء ومهيئا. فوق أرضيات مستطيلة بها صف من الثقوب، دون جدران، دون أبواب، ولا تحفظ، ينتظر صف طويل من الرجال الذين كانوا يخفون خجلهم بتعليقات شبقية واستعجال ساخر.

سأله عريف كان يحمل لائحة في يده: أنت ممرض، أليس كذلك؟ تعال معي.

لم تنفعه في شيء إشارته إلى سبب وقوفه في الصف، إذ وهو يقول له «اقض حاجتك فوق ثيابك» قاده حتى الجزء الخارجي من الشباك الحديدي. من هنالك، عبر غرفة الحراسة، مرا إلى

زنزانة محروسة بشكل استثنائي. أمر العريف بفتح الباب ودفع
خوان نحو الداخل.

هذا الشخص يجب أن يظل حيا حتى يوم غد في السادسة
صباحا. في حالة موته، سنعدمك أنت. سوف ترى.

وأغلق الباب بقوة. تمكن الظلام من عيني خوان صينرا الذي
حدس، عند دخوله، بوجود جسم أعزل فوق سرير من دون فراش.
سأله خوان دون أن يتجراً على لسه:
من أنت؟

اسمي كروث ساليديو. وأنت؟

خوان صينرا

كان كروث ساليديو رئيس تحرير جريدة «الاشتراكي» في
المرحلة الأخيرة من الحرب، وتمكن من الوصول إلى فرنسا في
آخر لحظة. ورغبة منه في الوصول إلى وهران استقل سفينة
شحن كانت تتوقف بجنوة، وهناك قبضت عليه مجموعة من
«القمصان السود». وبعد شهر أعادوه إلى إسبانيا. ولما سئل عن
التنظيمات الموجودة بالمنفى وعن خطط لیسطر للعودة إلى
إسبانيا مع فرقة من الجيش وعن مئات الأشياء التي لم يعد
يذكر ما قال بصدها بالتدقيق، حوكم وحكم عليه بالإعدام. بين
كل هذه الاحتفالات بالموت، وكل هذا التعب، فرت الحياة من بين
يديه وهي تتدفق، وكان منشغلا فقط برئتين أنهكهما السل. لم
يتمكن قط من معرفة الجرم الذي ارتكبه. كان يعرف فقط أنهم
كانوا حريصين على أن يصل حيا قبالة كتيبة الإعدام.
قال متوسلا:

الكونت مايا لادي يريد إعدامي بشكل علني، قم بما تقدر عليه لأموت قبل ذلك.

لا يمكنك أن تطلب مني ذلك مهما كنت راغبا فيه. أبدى كروث ساليديو موافقته. ما كان بالإمكان أن يطلب منه ذلك. وبما أنه كان يختنق حينما يتكلم، قرر أن يتكلم حتى الإنهاك، وشرع في منح صوت لذاكرته، متحسرا على بيصطبيرو الذي كان يحتضر بسجن لاكارمونا وعلى أاثانيا، يا له من رجل عظيم أاثانيا هذا! لقد أخرسوه إلى الأبد بمكان ما مفقود ومنسي بفرنسا الخاضعة الآن لمخططات هتلر، وعلى ماتشادو، حبيبنا ماتشادو...

نحن شعب ملعون. ألا تظن ذلك؟ لا. اظن أننا لسنا شعبا ملعونا لأن الإقرار بذلك سيعني إلقاء الذنب على آخرين.

وبدا رئيس التحرير، بين لهاث ولحظات صمت وحشرجات، يقدم أخبار أصدقائه، أخبار الرجال الذين دافع عنهم بأعمدة جريدته، ولكن بتلك الأنفة المهنية التي كانت تمنعه من أن يتحدث عن نفسه. أصابه التعب في حكاية مدمرة لم ترغب في أن تنتهي كنفسه الذي لم يستطع أن يخمد. كان بردانا لكنه لم يقبل أن يدفنه خوان بجسده. كان ظهره يؤله ولم يوافق على أن يغير له شكل تمده. كانت الذاكرة تخنقه وكان يريد فقط أن يتذكر مهما كان الثمن. في الفجر كان صوته قد أصبح مشكلا من كلمات ممتزجة بالموت. وواصل حديثه من دون توقفات إلا ما كان منها ضروريا لكي يستعيد نفسه المتناقص بشكل تدريجي،

والذي أصبح يشبه، إلى حد كبير، هواء متبخرا.

مات وهو يحاول أن يتذكر أمرا غير واضح.

عندما فتح باب الزنزانة وعثر على كروث صاليدو ميتا، قرر الرقيب برغم كل شيء رميه بالرصاص، وضرب العريف خوان صينرا ثلاث ضربات بقندق البندقية، ثم أعادوه إلى الدهليز الثاني.

أخبر إدواردو لوبيث بما حدث، وتظاهر بالم غير محتمل ليبرر البكاء غير المناسب الذي انتابه. في ذلك الدهليز، كان من المسموح به أن تعوي من الضربات المتلقاة، ولكن ما كان من المقبول أن يبكي المرء حزنا.

وبما أنه حدس أن ذلك سيكون مصدر مواساة، بحث عن ركن قصي ليواصل كتابة رسالته.

سأل الشاب ذو بيض القمل:

- لمن تكتب؟ لأخيك؟

نحو أخي، وذلك أمر مغاير.

تحدث بطريقة غريبة لا أستغرب أنهم يريدون رميك بالرصاص.

«مازلت على قيد الحياة. مرت عدة أيام ولكن هنا لا توجد سوى صعوبات. ما بين القلم والورق وغفوتي الدائمة تمر بالنسبة إلي الساعات كأي لا أجرؤ على استثمارها لأنني أعرف أن هذا الوقت ليس ملكي.

أحلم باستمرار من دون أن أعرف إن كنت نائما أو أنني أتخيل، من دون أن أرغب في ذلك، عالما يكاد يكون فارغا حيث الجميع

يتكلم لغة غريبة لا أفهمها، وإن كنت لا أحس بأني وافد جديد.
عندما سأتعلمها، سأحدثك عن اللغة المستعملة في أحلامي.
لون الهواء هو مثل لون الأماسي في صيف ميرافلوريس، على
الرغم من أنه لا توجد جبال والمشهد يضيع في أفق بالغ الصغر
لا يبدو بعيدا وإن كان لدي انطباع أنه يستحيل الوصول إليه...». كانت
رتابة ذلك الدهليز تشرف على النهاية، ومع ذلك فهي
تظل رتيبة. والنزوع التلقائي الذي يجعل المجموعات تتشكل ثم
تتكسر بالغيابات الحتمية للمحكوم عليهم، كان يظل قائما كأن
الحياة متواصلة.

كان إصبوث ومينا الوحيدين من بين السجناء المسموح لهما
بالصعود إلى أسطح البناية. كانا يقومان بذلك كلما تعين ضرب
صوف أفرشة ضباط الصف العاملين بالسجن.
مرة في الشهر، كانت تعطى لكل واحد منهما عصا بطول
مترين، في آخرهما مثلث مستقيم، ويستعملانها لرج محتويات
الأفرشة المبقورة إلى أن يصبح الصوف منفوشا مثل الثلج.
حينما كان خوان موجودا بالسطح، لم تكن مشكلته هي
الحنين إلى الأفق الذي ترسمه البنايات، ولا النظر إلى السماء
المفتوحة باعتبارها رمزا للماضي، ولكن هي أن يجذب الحمام
الجائع الذي كان يحوم فوق مدريد بحثا عن قوت مستحيل
خلال فصل الشتاء. كان يحتاج من أجل تحقيق ذلك إلى كل
ما يمكن أن يساعد على جذبها: فتات الخبز، قطع رقاقة كان
مشاركون في القران يحتفظون بها بعد القداس، صراصير، بق،
ثمالة الهندب، وحتى قشر بطاطس تركها أحدهم ليتمكن من

أن يستبدلها بشيء أكثر ضرورة من الطعام.
لما كان الحمام يأتي بأمل العثور على شيء ما يأكله، كان أسبوث ومينا يظلان من دون حراك حتى يصبح الجوع أكثر قوة من الخوف ويبدان في نقر المصيدة الموضوعة فوق أرضية السطح. حينذاك، وفي حركة سريعة ومدروسة كان كل واحد منهما يواجه ضربة لاثنتين من الحمام فتظلان بذلك في وضعية الفم إلى الأعلى وقوائمهما منكشحة على الصدر كأنهما كانتا ترغبان في أن تحتما من السماء التي كانت تتحطم فوقهما.

كانا يأكلان واحدة منهما ويستعملان الأخرى للتبادل مع الحرس، وللحصول على ما سيكون موضوع مقايضة مع السجناء.

هكذا مكن أسبوث ومينا السجناء خوان صينرا من مزيد من الورق مقابل حزامه ليتمكن بذلك من مواصلة الكتابة لأخيه. «مازلت حيا. لا أريد أن أحسب مرور الزمن ولا أن أحدثك عما حدث حولي. ولكني كلما لجأت إلى ذاكرتي، كان إخفاقي أكبر. إمكانية التفكير في كل هذا هي امتياز يحظى به من هو محكوم عليه، هي امتياز العبد».

في هذه اللحظة وقعت مشاجرة بالدهليز ودخلت فرقة من الحراس مهددة السجناء وأجبرتهم على أن يظلوا واقفين ووجوههم إلى الحائط وأيديهم إلى الأعلى خلال ساعتين لا متناهيتين. كان فتيل المشاجرة قد أشعله نقابي من منطقة أراغون وفوضوي من كاديس تم ضربهما حتى لم يبق لذيهما أدنى أثر لقناعة ما وتبددت كل أفكارهما. كان خوان يفكر في

المعايير التي سيعتمدها الفارس كابلان ليمنع هذه المرة بعث الرسالة التي كان يكتبها لأخيه.

في تلك الفترة، بدأ يُسمح ببعض الزيارات للسجناء. حصل على التصاريح اللازمة لذلك أولئك الأقارب الذين قدموا أنفسهم على أنهم رجال دين أو عسكريون ذوو رتب لزيارة أفراد أسرهم السجناء الذين لم يتم اتهامهم تهما خطيرة. بدأت تصل أخبار ملطفة بخصوص ذلك الصمت. كان هتلر محاصرا في معركة إنجلترا، وكان رجال المقاومة ينتظمون في عدة جهات من الشمال، وراجت إشاعة مفادها أن الولايات المتحدة الأمريكية ستزحف على شبه الجزيرة من جهة الجنوب.

جميعهم كانوا يتمنون أن يمر الزمن، وتعلموا أنهم كلما عدوا إلى الستين مرت دقيقة. لكن الأيام كانت ممتدة.

كان بين السجناء رجل متقدم في السن وصموت، يتجنب الاقتراب من الآخرين بما في ذلك خلال الليالي التي كان الجميع فيها يتكدر بحثا عن دفء الآخرين. كان الكل يناديه الرضيع، والقلّة كانوا يعرفون اسمه. كان يتحمل بصبر البرد والجوع وارتياب الآخرين. كانت لديه ندبة كبيرة تفرق شعره إلى قسمين. من ذلك الوجه الحزين ما كان يحتفظ بأي ملمح باستثناء الصمت وعينين واسعتين لا ترفان كأنهما كانتا في حالة اندهاش مستمرة.

لم يكن يتحدث قط. كان ينصت إلى الأصوات التي تأتي من الساحة أو من بقية الدهايز والضجيج الذي ينقله الهواء، وينأى بنفسه دوما عما يقوله أولئك الذين كانوا يتقاسمون

معه الاعتقال. كان اسمه كارلوس ألفيريا، وكانت رتبته فارساً مؤقتاً بالجيش المتمرد. كان ينتمي إلى عائلة فلاحين ميسورين ببورغوس. وفي ١٨ يونيو من سنة ١٩٣٦ كان على وشك أخذ القطار للعودة إلى منزله من سلمنكا حيث كان أستاذاً مساعداً بشعبة القانون الروماني لما علم بوقوع انقلاب عسكري بشمال إفريقيا. فكر ما يلي: «دافع عما تملكه»، ويبحث عن طريقة للالتحاق بالمتمردين. بشكل فوري حصل على رتبة فارس مؤقت بفضل تكوينه الجامعي. لم يكن بطلاً ولم يحدث له أن شعر بالخوف الذي تولده الحرب. كان دائم الخضور بالثكنات التي تؤمن المؤونة للمقاتلين، والأمر الأكثر صرامة الذي وجهه كان يهتم لوائح أمناء في الجيش عرفوا بجشعهم ووفائهم للقضية كان دوماً محط شبهة. ولتفانيه في العمل ترقى إلى درجة قبطان مكلف بتدبير المؤونة.

ساعات قبل أن يسلم العقيد كاصادو السلاح أمام الجيش المتمرد هرب من الخدمة. كانت الحرب على وشك الانتهاء وهو، من دون سلاح أو أمتعة، انتقل إلى معسكر المهزومين. لا أحد صدقه من الجمهوريين ولا أحد حماه عندما دخلت فرق فرانكو إلى مدريد. اعتقل على الفور وحوكم ورمي بالرصاص ذات فجر رفقة عشرات من التعمساء كانوا أول من ماتوا لأنهم كانوا أول من قبض عليهم.

إن السرعة في القتل تمنع من أن يكون الموت متقناً. لقد أصابت رصاصة أعلى جبهته ومرت بمحاذاة جمجمته دون كسرها. على إثر ذلك ظل من دون حراك والحاجة إلى توفير

الذخيرة حالت دون استعمال رصاصة الرحمة بالنسبة إلى محكوم عليه غفل كان وجهه بالكامل ملطخا بالدم. دفن في قبر جماعي بسرعة مثله مثل الباقين، وبالكاد غطى بعض التراب تلك الجثث.

عندما استعاد وعيه، كان مدفونا بشكل سيئ بين الأجسام غير المنظمة لهالكين آخرين كانت لازالت ملتصقة بهم روائح تدل على وضعيتهم السابقة: عرق، بول، وكذا ما يمكن أن تكون عليه رائحة الخوف. ترك الشكل غير المنظم الذي كان عليه المدفونون أكياسا من الهواء تنفسها وحده، هدية وداع من طرف خصومه، ومن دون أدنى فكرة عن الزمن ومن دون أدنى دليل على أنه مازال على قيد الحياة سوى ألم واخز برأسه، تمكن من تحريك الموتى الذين كانوا يسحقونه بثقلهم ومن إزالة طبقة التراب التي كانت تفصله عن السماء. كان حيا بخلاء ما - بعد ذلك سيعرف أن المكان هو أركاندا ديل راي - غارقا في ظلمة منعشة تسلمت إلى تلك المقبرة المرتجلة.

حاول البحث عن المساعدة، لكن كل الذين رأوا ذلك الرجل المدمي ويجرح كبير في الرأس، كانوا يغلقون أبوابهم بمرتاج الرعب. لم يغثه أحد. لم يعرفه أحد قميصا ليخفي الدم المخثر في قميصه، لا أحد قدم له طعاما، ولا أحد دله على طريق العودة إلى منزل أبويه.

في أواخر شهر أبريل، اعتقل من جديد بصوموسيرا وأرسل مرة أخرى إلى ثكنة كوندي دو كي ليعاود من جديد المرور بصراط الموت.

لما كان ضباط السجن القساة يسألونه عن انتمائه العسكري كان دائماً يقدم الإجابة نفسها: اسمي كارلوس اليغريا، ولدت في ١٨ أبريل ١٩٣٩ بقبر جماعي بأرغاندا ولم أنتصر قط في أية حرب».

لهذا أطلقوا عليه لقب الرضيع.

كان خوان يشعر بانجذاب ما نحو هذا الرجل الوحيد والصموت، وكان يثيره غيابه الدائم المكذب، من جهة أخرى، للشبهة العامة التي تروج لكونه مندسا يسترق المعلومات. وحين قدوم الليل في يوم لم تكن فيه لائحة، اقترب من المكان الذي كان فيه خوان يراود النوم وهمس في أذنه: «أنا وأنت نعيش بالاقتراض. علينا أن نفعل شيئاً حتى لا نكون مدينين لأي كان بأي شيء». وابتعد نحو نهاية الدهليز حيث كان حاجز الدخول الحديدي وشرع يصرخ: «أيها الحارس، أيها الحارس» بنبرة مستهترة وصارمة في الوقت نفسه.

ظل كل السجناء متمسكين برياطة جاشهم محافظين على الوضعية التي كانوا عليها قبل أن تفاجئهم الصرخات. كان الرضيع، وهو يضرب قضبان الحاجز الحديدي بصحفته، يواصل صراخه بقوة ما كان أحد يظنها لدى ذلك الرجل الضئيل الذي وشمه الموت. وأخيراً اقترب منه جنديان ويقندق البندقية عملاً على إبعاده عن الباب. غير أن قدرته على الإحساس بالألم كانت قد نفذت منذ أمد بعيد أمام كتيبة متسارعة للإعدام وضربات البندقية الشديدة ما كان يبدو أنها تؤثر فيه. وفي عراكه، تمكن من القبض على قندق إحدى البندقيات وبحركة سريعة وغير

متوقعة، انتزعها من الجندي الذي كان يضربه. في جهة من الحاجز جندي مسلح وآخر منزوع السلاح، وداخل الدهليز صمت جماعي متراكم في سكون لا متناه وراء الرضيع وهو يصوب البندقية نحو حراسه.

وتجاوز هذا الصمت الحاجز والدهليز والليل الذي أتى قبل أوانه ولهاث الرضيع الباحث عن العدل. ولم يحدث الجندي المسلح نفسه أي ضجيج عندما ترك بندقية صنف ماوسر على الأرض مطيعا إشارة سلطوية من ذلك المجنون الذي، بحركة احترافية وسريعة، فتح قفل سلاحه. حول ببطء البندقية نحو نفسه ووضع طرف الفوهة على ذقنه وقال إنه لم يقتل من قبل وأنه، مع ذلك، سيموت مرتين. أطلق الرصاص ليكسر ذلك الصمت وليسدد دينه.

الصراخ، الصفير، الأوامر الصارمة، والدهشة وضعت حدا لذلك اليوم الذي كاد يمر من دون أموات. أعطى الفارس كابلان المسحة الأخيرة إلى روح تطايرت إلى آلاف القطع.

في اليوم التالي كانت هنالك من جديد لوائح في الساحة وشاحنات تقل رجالا خنوعين قادمين من الدهليز الرابع، لكن لم تكن هناك مناداة للمثول في القبطانية العامة أمام العقيد إيمار. كان خوان مازال تحت تأثير سلوك الرضيع، وكانت استكانته الخاصة تجاه الموت تبدو له كل مرة غير قابلة للاحتمال ويشكل أقوى.

الموت؟ لماذا الموت؟ حتى الآن، لا أحد اتهمه بشيء ملموس باستثناء أنه عاش بمديره خلال الحرب. لا أحد كان يعرف أنه

عاد من إلدا مكلفا من طرف فيرناندو كلودين بمهمة ترتيب محاولة اغتيال العقيد كاسادو.

درس عادات كاسادو برغم أن الوقت لم يكن يسمح له بذلك وسجل بدقة ساعات دخوله وخروجه من مقر القبطانية. وعرف أين كان يعيش وأي طريق يتبع عادة.

عندما أعد كل شيء لتنفيذ الهجوم، استسلمت مدريد لقوات الجنرال فرانكو. لم يتمكن من تأخير الهزيمة ولو ليوم واحد.

هذا الأمر كان يعرفه فقط طوكلياتي وكلودين ولا أحد كان سيسألهما عن أي شيء. كان مازال بإمكانه أن يكون موظفا بسيطا بمصلحة السجن. كان مازال شابا وبالغ الغموض مما كان يسمح بتكليفه بأية مسؤولية في الحرب. وهذا الأمر كان يواسيه. كان يمكن أن يكون مهزوما إضافيا، خاسرا بالمصادفة، لأنه بالمصادفة كان بمديره في ١٨ يونيو ١٩٣٦.

ربما سيتمكن من إخفاء هزيمة خوان صينرا.

سمع اسمه يتردد كأنه كان في كهف عبر السلاالم التي كانت توصل إلى الدهليز. سبق الصدى الصوت، وحينما صرخ العسكري مرة أخرى ناديا اسمه أمام الحاجز الذي يغلق على الدهليز، كان الجميع ينظرون إليه، ساكنين، خنوعين، مندهشين. لقد كانت للموت مواقيت، وهذه كانت ساعة غير مناسبة.

من دون أن يضع الصحيفة، رفع يده وخاطبه أحدهم بحدة قائلا: «تعال هنا»، وانفتح له الطريق بين المجموعات المتحلقة من دون حراك ليواصل السير من دون عراقيل حتى المدخل. مسبقا بالرقيب إيديلميرو ومحاطا بجنديين مهلهلين وضعيفين، تم

أخذه إلى غرفة ضيقة من دون نوافذ كانت توجد إلى جانب المطابخ في السرداب.

هنالك كان العقيد إيمار والمرأة ذات معطف فرو الأستركان وهي مازالت تقبض على حقيبة يدها كما تشد الكواسر على غنيمتها. كانا جالسين على مصطبة صغيرة من الأجور وكانت المرأة تنهياً للنهوض، غير أن حركة سريعة من طرف العقيد شبيهة بحركات القطط منعتها من ذلك.

كان الرقيب والجنديان ينتظران أمرا من رئيسهما المباشر، وهو امر اتسم بعدم الدقة والرخاوة.
سأل الرقيب مندهشا:

- هل تريد أن تبقى وحدك مع السجين سيدي العقيد؟
غير أن الحركة غير الدقيقة رُسمت في الهواء هذه المرة في حجم أكبر، ومردداً تحت أمرك سيدي العقيد، خرج الرقيب من الغرفة ليتبعه الجنديان. لم يغلّقوا الباب وظلّوا على بعد كاف حتى لا يسمعوها ما يروج، وقريبين بشكل يسمح لهم بأن يتتبعوا ما يحدث في تلك الغرفة.

وما راوه هو أن العقيد وزوجته ظلا جالسين قبالة خوان صينرا الذي كان ينتظر، من دون حراك، تفسيراً لما كان يحدث.
راوا كذلك كيف أن المرأة ذات معطف الأستركان البالي أخرجت ببطء صورة من حقيبة يدها، وأرقتها للسجين الذي حرك رأسه موافقاً.

لم يتمكن الرقيب إيديلميرو من أن ينصت إلى خوان صينرا وهو يحكي لأبوي ميغيل إيمار كم كان ولدهما بسيطاً وتلقائياً.

طبعه غير القابل للخضوع والشجاعة التي أبان عنها حينما رفض الهرب من مدريد عندما انقلب كل شيء ضده. لم يستطع الرقيب أن يسمع الحكايات التي كان ينسجها خوان صينرا أمام أم كان وجهها يضاء بمقدار ما كانت منجزات الكذب تحل محل فظاعة الواقع.

كما أنه لم يتمكن من أن يحدس - فالحرب لا تترك رهافة الانتباه للتفاصيل - كيف أن غريزة البقاء كانت تترك مكانها لإحساس بالشفقة تجاه امرأة فقدت رشدها بفعل ألم كان خوان صينرا يتعرف عليه كما يتعرف على لهاث الموت.

كان الرقيب يرى فقط كيف أنها كانت تقترب من السجين صينرا الذي، بفصاحة غير معهودة، تحدث وتحدث بشكل مسترسل مجيباً عن أسئلة مقتضبة ومتوسلة من زوجة العقيد. ورأى كذلك، تحت وقع مفاجأة كبيرة، كيف أنها أخذته من ذراعه، وكما تفعل أي أم أجبرته على الجلوس قرب العقيد المذهول على المصطبة الصغيرة التي، بالنظر إلى وجودها على يمين الباب، فإن الرقيب إيديلميرو كان بإمكانه رؤية جزء منها فقط. استأذن أحد الجنديين ليلف سيجارة، وتوقف الشهود الثلاثة عن متابعة ما يجري من دون أن يتجرأوا على مساءلة سلوك رئيسهم المباشر.

عندما عاد خوان إلى الدهليز الثاني، كانت الكلمات الأخيرة لتلك المرأة مازالت ترن في أذنيه: «سأتي لك بقميص صوفي فالبرد قارس»، وتوسل إليها العقيد الباحث عن العدالة قائلاً: «فيوليتا من فضلك».

كان بالكاد يجرؤ على أن يحكي لأي كان عما يقع له. وباستثناء إدواردو لوبث لم يسأله أحد. وحده الارتباط الوثيق الذي تعنيه العلاقات النضالية أجبره على أن يصرح بكل شيء أمام المسؤول السياسي الذي لم يخف استغرابه.

كان خوان على وشك أن يتحدث عن لغة غير مفهومة، لكن شيئاً ما نبهه إلى أن إدواردو لوبث كان فقط يسمي الأشياء بمسمياتها. واليوم التالي كان يوم أحد.

أجبر كل السجناء على حضور القداس الذي أحياه الفارس كابلان بالدهليز نفسه. في موعظته الحربية، الحانقة والمجددة للوطن، تحدث عن الرضيع. دان الانتحار بوحشية لكنه لم يتحدث عن وفيات أخرى. أنصت الجميع في صمت، والبعض، بغريزة بقاء أقوى مما عند الآخرين، اقترب لتناول القريان عندما حان الوقت. كان الشاب ذو بيض القمل من بينهم. لما عادوا إلى أماكنهم، ركع الذين تناولوا القريان مغطين وجوههم بأيديهم بحركة فيها من رغبة الهروب أكثر من الخشوع.

عندما سأل خوان الشاب إن كان يعتقد أن تناول القريان سيغير مصيره، أجابه: على الأرجح نعم، ولكن ما يهم على الخصوص هو أن الرقاقة هي طعام، وأنه يشعر دوماً بجوع قاهر. دفعته خطبة القسيس إلى أن يتم رسالته غير المنتهية. كان إيقاع الزمن البطيء يجعل الوقائع تمر بسرعة، تتسارع، وإن كانت الثواني تمر بتأن يثير الغيظ.

بمجرد أن تمكن من الابتعاد، حتى استعاد القلم والورق وواصل الكتابة:

....مازلت حيا . لغة أحلامي هي كل مرة أكثر وضوحا . هي كلمات يستعملها الناس في أحلامي ليحدثوني عن مناظر مشتاق إليها وأمكنة تتحدى الحواجز . يروق لي أن أتحدث بهذه اللغة..

جلس الشاب صاحب بيض القمل إلى جانبه وظل صامتا . توقف خوان عن كتابة الرسالة، وعرف أنه قد تعلم ترتيب الأحزان، أن يفرق بين يأس وآخر، أن يتعرف على الخوف الممزوج بالبغض، وعلى البغض وحده، وعلى الخوف الصافي . كان يعرف كذلك أن يميز بين الذي يندم لأنه لم يفعل شيئا محددا، والنادم لأنه فعل شيئا . لكن ذلك الشاب كانت له نظرة بندية أحس بأنه شرع في نسيانها: الحنين . ربما لذلك السبب تحدثا بتأن، وهما ينظران إلى السماء عبر مربعات تشكّلها نافذة بشباك . حدثه خوان عن موزارت - مهزوم آخر- وعن سالييري، حدثه عن رامون إي كاخال - مصارع وحيد - وعن كيفية تشكّل الغيوم . حدثه عن داروين وعن الأهمية التي اكتسبها أصبع الإبهام في عملية تحول الإنسان إلى إنسان، ولكي ينزل من الشجرة ويتعلم قتل من يشبهونه .

في تلك الأمسية الباردة، بدھليز نزعّت عنه بشكل لا رجعة فيه الحركة الطبيعية للأشياء، لم يجد خوان قوى لمواساة صديقه . لا شيء كان نافعا لأن المنطلق لم يكن حقيقيا .
مهما فعلت، ستجد دوما نصف أناسك ضدك . إن ذلك بمنزلة عقاب . لا أحد مطالب بأن ينجزه بشكل جيد . هل كلامي ممل ؟
أنا مستعد لإعطاء أي شيء مقابل لف سيجارة .

كان هذا هو كل جوابه.

وبتطرقهما لهذا الموضوع وذاك، نسيا الموت، ومريوم أحد خلصة بمدينة سئمت من الخوف. وجاءت أيام قتلوها أيام بلوائح في الضجر واستدعاءات للمثول أمام محكمة العقيد إيمار. ولكن، مع مرور الوقت، أصبحت فترات الراحة أكثر اعتيادية. اليوم، لم تكن هنالك شاحنات الموت، وغدا لم تكن هناك حالات مثول أمام محكمة ردة الماسونية والشيوعية... وما كانت تتم قط المناذاة على خوان.

ذات مساء، بعد مرور بضعة أسابيع، سمع اسمه بقوة في الممرات، ورافقه الرقيب إيديلمير مرة أخرى إلى الغرفة الضيقة التي كانت توجد بجانب المطابخ. هناك، كان العقيد الصارم والمعتد بنفسه وزوجته المغلفة بمعطف الأستركان. لم تكذ تراه حتى مدت له قميصا صوفيا أخضر اللون. «كان لميغيل الصغير، قالت له. وابتدأت، وكان الوقت لم يمر، من حيث توقف حديث اليوم السابق.

كانت تحكي طرائف عن ابنها مقابل أكاذيب خوان الذي تذكر أن ميغيل خلع جوارب الصوف ليعيرهم إلى سجين آخر جمده البرد، وأنه في إحدى المناسبات، رمى بحصته من الأكل في وجه الطباخ الذي رفض أن يعطي خبزا لسجين كان يغني في مواجهة الشمس، كلما توجه إليه أحد بالكلام.

كانت أكاذيب ليست مختلفة بشكل كامل، لكنها منسوبة إلى شخص لا يستحق أن يكون هو من قام بها، شخص ما كان بالإمكان أن ينسب إليه أمر بطولي أو مرده إلى أنفة ما حتى.. كانت للإستراتيجية مفعولها. وقد تأكد خوان صينرا من ذلك.

ففي مناسبتين لم يلق الرقيب إيديلميرو أي اهتمام عندما أحنى رأسه وهو يقول بخنوع: «سيادتك تأمر بما تشاء سيدي العقيد»، وكذا في النهاية، عندما تحول صبر العقيد إيمار إلى جمل وديعة «فيوليتا، الوقت متأخر، أو «فيوليتا، ليس لدينا إذن سوى لخمس عشرة دقيقة». فتحت المرأة حقيبة يدها ومدت له سندويتشا من سمك الرنكة ملفوفا في ورق قش. ثم قالت بنبرة متحدية وهي تنظر إلى زوجها:

سأعود.

تحمل خوان التحقيق الرتيب لإدواردو لوبث واقتسم الساندويتش مع الشاب ذي بيض القمل. ما الذي كان يجعل المسؤول السياسي يعتقد أنه في يوم من الأيام سيستعمل المعلومات التي يراكمها؟ كونه مازال حيا مرده بكل بساطة إلى المصادفة، إلى نظام اعتباطي للموت. بالإضافة إلى ذلك، كان من المستحيل إقامة أي تواصل مع العالم الخارجي. ومع ذلك، ويفعل انضباط محمود، كان يواصل مراكمة المعلومات ويحلل سلوك السجناء.

اعتذر خوان مختلقا عذرا لينهي المحادثة، فالحياة لها رائحة سمك الرنكة وهذا ما يجعلها رائحة.

مرت الأيام وكان شهر مارس باردا ورطبا كما هو الزمن غير المأهول.

وبرغم شعوره بنفور تجاه المعطف الصوفي لميغيل إيمار، فقد كان ممتنا للدفع الذي كان يمنحه إياه خلال تلك الليالي التي لا تريد أن تنتهي.

تتابع اللوائح وإن كانت كل مرة أكثر قصراً، وما كان يبعث أكثر على الأمل، هو علمهم بأنه قد تم النطق بأحكام بالسجن المؤبد لا بالإعدام.

كان ذلك شيئاً شبيهاً بالحياة.

تلقي زيارة أخرى من المرأة ذات معطف الأستركان وزوجها الخنوع. عاود الكذب واختلاق حكايات بطولية كانت تنتزع الإعجاب من تلك الشفتين الشاحبتين اللتين ما كان بإمكان أحد أن يتصورهما وهما تقبلان. وفي وضع شبيه بوضع شهرزاد، كانت تلك الأكاذيب تسمح له بليلة إضافية، وليلة إضافية أخرى. وليلة إضافية أخرى. إلى أن جاء اليوم الذي كان فيه الشاب ذو بيض القمل مرتباً الأول في لائحة من سيتلقون حكم العقيد إيمار. انتظر خوان طوال اليوم عودة المحكوم عليهم. من النافذة استطاع أن يصرخ سائلاً إن كان أحد يعلم شيئاً عن مصير أوخينيوبات. لا أحد أعاره اهتماماً ولا القسيس نفسه استطاع أن يقول له شيئاً عما حدث للشاب. ابتدأت أيام من ضيق جديد لخوان، ضيق على ضيق، حيرة فوق حيرة.

تعيد الحيوانات المحجوزة في السجون، بهذا القدر من الاستعجال، تركيب تاريخ من الشاعر، من الذكريات المتراكمة في الزمن إلى درجة أن السجناء أنفسهم يفاجأون أنه لتوليد الشاعر السابقة، تلك المنتمية إلى الخارج، يتطلب الأمر حياة بأكملها معيشة بكثافة. ورغم ذلك، ارتعب خوان حينما ألحت عليه فكرة أنه لو كنا أحياء في القبر لانتهى بنا الأمر إلى أن نحب الدود.

قدم قميص ميغيل إيمار رشوة للرقيب إيدليرو، ولكنه تمكن فقط من أن يعرف أن أوخينيو موجود في الدهليز الرابع من دون أن يعرف فحوى الحكم. حاول أن يوصل إليه رسالة لكنه لم يكن يملك أي شيء يدفعه مقابل توسلاته، ولم يعرف أوخينيو باث أن خوان صينرا قد أرسل له ضمة صديق وأخ.

لم يعرف قط أن خوان صينرا كان يريد أن يعثر على الفتاة الحامل الآتية من سيغوفيا ليقول لها إن أوخينيو كان وفيًا ومشتاقًا إليها. لم يعرف قط أن خوان كان منشغلاً بالجروح التي تخلفها محاولة التخفيف من التهيج الذي يسببه القمل.

وذات فجر، ملتصقا برغم البرد، بشباك النافذة التي كانت منزوعة الزجاج، سمع اسم أوخينيو باث وقد نادى عليه الضابط الذي كان يعد من تم اختيارهم للموت ذلك اليوم. قام خوان بالمجهود الجسدي الأخير في حياته حيث تعلق بالنافذة وصرخ: أوخينيو، لا تصعد إلى الشاحنة! أنا خوان!

واصل صوت الضابط صارخا مناديا بقوة على أسماء أخرى كأن لا شيء كان بإمكانه مقاطعته. بالتدريج تخلت عنه قواه وترك خوان نفسه يسقط في حالة وهن. بكى كما لم يكن يتصور أنه كان بالإمكان البكاء بعد حرب. وعندما اختفى أزيز المحرك خلف بوابة الساحة، كان المتعود على تأويل أنواع النشيج أو مترجم متمرس للبكاء سيستنتج أنه من بين كل تلك الأصوات المتقاطعة، كان خوان قد نطق بكلمة «وداعا». ولكن لا أحد سمعه، فتمكن منه فتور من دون إحساس تجاه البرد والجوع

ونفس الآخرين وذلك خلال يومين وليلتين كأن اشتغال جسمه توقف، وكان الزمن نفسه مات حزنا.

تبين لخوان أنه لم يعد لديه متسع من الوقت لينهي رسالته. بأحرف معتدلة وصغيرة واصل الكتابة حتى أتم الورق الذي كان قد حصل عليه:

«مازلت على قيد الحياة، ولكن حينما ستصلك هذه الرسالة، سأكون قد أعدمته. حاولت أن أجن لكنني لم أتمكن من ذلك. أتنازل عن مواصلة الحياة مع كل هذا الحزن. اكتشفت أن اللغة التي حلمت بها لخلق عالم أكثر لطفا هي في الحقيقة لغة الموتى. اذكرني دائما وابذل جهدا لكي تكون سعيدا. أحبك.. أخوك خوان».

حاول أن يتخيل حركة الملازم الثاني القسيس عندما كان عليه أن يمارس الرقابة على رسالته. أغلق المظروف، كتب عنوان أخيه وسلمه إلى حارس الدورية لكي تأخذ الرسالة مسارها. كان ذلك هو المعمول به.

هكذا كان دائما يودع الأموات الأحياء.

في اليوم الثالث، كرر الجاويش إيديلميرو اسمه إلى أن تخلص خوان من خموله. ساعده أحدهم للوصول إلى الباب ولم يسر الجنود إلى جانبه هذه المرة لأنهم احتاجوا إلى كل قواهم ليسندوه ويأخذوه أمام المرأة ذات معطف الأسطركان. كانت هناك منتبهة، بحس أمومة بئى، حاجبة بجشعها الغامض الحضور الضئيل للعقيد إيمار الذي ظل، كالعادة، متخفيا في خلفية المشهد.

سألته إن كان مريضاً. تأخر خوان في الإجابة كأنه لم يفهم،
وفي الأخير تمكن من القول:

- «أنا ميت».

«هيا، هيا»، قالت المرأة متحمسة وهي تأخذه إلى المصطبة،
الأمر غاية في البساطة».

انقاد خوان وراءها، وبحركة من رأسه أعلن عدم موافقته.
أنت شاب وهذا الوضع لن يدوم. ستري.
لكن خوان كان يواصل إعلان عدم اتفاقه بحركات فيها وداعة.
- أحضرت لك ساندويتشا.

لا أشعر بالجوع.

عليك أن تأكل. سحنتك ليست على ما يرام.

أنا بخير.

ما الأمر إذن؟

نظر خوان إلى هذين الكائنين المؤدبين اللذين يحدثانه
ويعاملانه كأنه في ملكيتهما. كان خوان ألعوبتهما، شيء ما
ينبغي أن يشتغل عندما يضغطان على الزر، أن يتحرك عندما
يدفعانه، أن يقف عندما يأمرانه بذلك. لهذا لم يتمكننا من فهم
سلوكه.

قال: ذلك أنني قد تذكرت أمراً ما.

وارتكبت تلك المرأة خطأ باستفسارها عما تذكره وجعله بهذا
الشكل مريضاً.

قال لها خوان إنه كان قد تذكر الحقيقة، بأن ابنها كان قد
أعدم بشكل عادل لأنه كان مجرمًا، لا مجرم حرب، هذا التعريف

الذي يختلف تقييمه وفق الجهة التي ننتمي إليها، بل مجرم من الصنف الرديء، لص، قاتل مدنيين قصد سرقتهم وبيع المسروقات بعد أن يتلاعب بها، مقدم خدمات للمنحرفين، وما هو أدهى، خائن لشركائه. وقد كان وراء سقوط منظمات تتاجر بشكل غير قانوني بالأدوية. ولكن، لحسن الحظ، لم ينفعه في شيء كونه كان جباناً، إذ حوكم من طرف محكمة عادلة وتم إعدامه من طرف كتيبة أكثر عدلاً. ولم يكن موته بطولياً، فأنا - وفي هذه النقطة كان يكذب - كنت حاضراً أعطي التعليمات للكتيبة التي أعدمته. تغوط في في سرواله، بكى، توسل ألا نقتله، وأكد أنه مستعد لتقديم معطيات إضافية متعلقة بالمنظمات الموالية لفرانكو والموجودة بمدريد... كان مجرد خراء ومات كما كان. كل ما حكيته لكم قبل الآن كان كذباً. كذبت لأنجو بنفسه، ولكني لم أعد أريد مواصلة العيش إن كان ذلك يشعركما برضا ما. الآن أريد أن أرحل.

كل هذا كان مثل برق، رجة جمدت نفس العقيد إيمار وزوجته. أنصتا إلى ذلك الرسم المنفلت لابنهما وقد أنجز بألوان تبين لهما بشكل فوري أنها ألوان الحقيقة. لا أحد يكذب ليموت.

لم يبديا أدنى اعتراض على خروجه من الغرفة الصغيرة التي دخلها منهكا، والتي يخرج منها الآن وهو يأمر الجاويش أن يقتاده إلى الدهليز. ويرغم أن ضابط الصف بحث عن أمر من العقيد، فإن النظرة الجامدة لرئيسه المباشر تم تأويلها على أنها بمنزلة موافقة. ومسترجعا نعمة عسكرية شعر، بشكل مفاجئ، أنه ملزم بإظهارها، قام بدفع خوان صينرا وترك مسافة

احتياطية بينهما حينما كانا يصعدان السلالم المؤدية إلى
الدھليز الثاني.

لم يتحدث خوان صينرا مع أحد. لم يقف في الصف ليأخذ
الطعام في صحفته. ظل صامتا في مواجهة النافذة التي كان
يحدس، من خلال شباكها، بوجود سماء شاسعة رمادية قادرة
على إلغاء فصول الربيع.

يومان بعد ذلك، كان اسمه الأول في لائحة مطلوبة للمثول
أمام المحكمة. كان الأول في المثول أمام العقيد إيمار. كان أول من
حكم عليه بالإعدام في ذلك اليوم ولم تجبره لا تهديدات الملازم
الثاني ريوبو ولا الضربات على الوجه من طرف السكرتير الأبهق
راسم الرايات، على أن يلتزم بشيء شبيه بوقفه عسكرية.

وفي الفجر التالي، كان اسمه الأول في لائحة من سينزلون
إلى الساحة. وعندما تجاوزت الشاحنة التي كانت تقله رفقة
مسجونين آخرين بوابة السجن، نحو مقبرة المودينا، فكر خوان
أن إدواردو لوبث سيكون أكثر هدوءا وهو يعرف أنه لم يكن هنالك
أي سبب ليظل على قيد الحياة. حاول أن يخمن أية معايير
سرية اعتمدها الملازم الثاني القسيس ليحجز الرسالة التي كان
قد كتبها لأخيه وأحس بارتياح جراء فكرة أنه لن يتم بعثها أبدا.
ومما منحه باعثا إضافيا للشعور بالسكينة، تأكده من أن
تعويج الضم الدال على رضا ظل من دون عقاب سيختفي من
وجه العقيد إيمار إلى الأبد.

فقط كفّ عن الكراهية عندما تذكر أخاه.

الهزيمة الرابعة: ١٩٤٢ أو أزهار عباد الشمس العمياء

أبانا المحترم، أنا قائم مثل أزهار عباد الشمس العمياء. وعلى الرغم من أنني عاينت اليوم موت شيوعي، فما عدا ذلك، أبانا، فأني هزمت، ولهذا فأني أشعر بأنني مثل سحابة غير مستقرة (*) ... مثل ظل (*)، مثل ظل منفلت.

اقرأ رسالتي مثل اعتراف، وفي النهاية اعف عني، لكن إذا كانت خطيئتي، كما أخشى، من غير المقبول أن تكون موضوع عفو، صل من أجلي، ففيما يتعلق بندمي، أنا نفسي لدي شكوك - هكذا هو شيطان جسمي - أما فيما يتعلق بتوبتي، فإن هذه الرسالة تسعى إلى أن تثبت أنها قد تمت.

كل شيء بدأ، أبانا، عندما التحقت، عملاً بنصيحتك، بالجيش الوطني المجيد. حاربت ثلاث سنوات في الجبهة مشاركا في الحرب الصليبية، وعشت مع كائنات مجيدة وفضيلة، مع جنود مضاعفين بأفكار مثالية وغرائز بئيسة، لكنهم كانوا يتوجهون إلى الله عندما يتعين عليهم أن يختاروا بين الهلاك والمجد. توحدت معهم وذببت فيهم. بالتأكيد، لم أكن نموذجا للقداسة،

(*) جميع الكلمات والتعبيرات المتبوعة بـ* هي باللاتينية في النص الأصلي. [المترجم]

فأمام فظاعة مماثلة تكون الغرائز، في آخر المطاف، مرساة الحياة. ومن واجب الجندي أن يعرف أن الأموات لا ينتصرون في المعارك. ساهمت بدمي في تحويل «الجبل المحروق» إلى «جبل تصفية».

طوبى للعادلين، لأنهم ما عادوا يريدون المزيد (*). والآن أتساءل، أبانا، ألن نطلب المزيد برغم أن علينا أن نطالب بالعضو بين الأموات، بين الفاشلين، بين الحطام الذي خلفته الحرب؟ ثلاث سنوات من نسيان الحياة، الحياة الشخصية وحياة الآخرين، تنتهي بأن يتحول المشارك في الحرب الصليبية إلى جندي، وجيوش الإله إلى فرق للمتمردين. تحتاج حياة من يظل على قيد الحياة إلى شيء آخر، بالإضافة إلى الحياة نفسها. الاحتفال بالانتصار على الشر هو عنصر آخر مكون للنصر. غضب الإله يمكنه أن يجعلنا نحن. أبانا، عرفت معنى الاشتناء. الاشتناء هو مثل النمر التي تعيش داخل الإنسان، مثل الأفيون الذي يعرف، بكل براعة، أن يحرك جميع الأحجار، أن يرج كل إسمنت الروح. الاشتناء، أبانا، سيادتك ستكون قد عرفت عليه عبر معزل الاعتراف، هو شيء مذهش. يمكن أن يلحقنا بزهو مصدره ارتكاب خطيئة، وكذلك بالرضا الشرير الذي مبعثه جعلنا جسدا يستمتع وهو يرغب في أن يموت، فيطلق، برغم وضعه المهين، صرخة حياة بإمكانها أن تذيب السندان الذي يزعم الجندي أنه يشكل عليه سلاحه الفولاذي. قد تكون الوقائع قد جرت كما يحكيها آخرون، لكنني أتعرف عليها فقط كمشهد تعيش فيه ذكرياتي. مازلت أتساءل كيف

كانت الأشجار عندما زرعوها، أو كيف كانت أمي وهي شابة، وأي مظهر كان لي عندما كنت طفلاً.

كل ما ظل موجوداً أثرباً بالتدرج في ذكراه، لأن حضوره الفعلي غير متجانس مع الذاكرة، ولكن ما فقدناه في الطريق مازال مثبتاً في لحظة اختفائه، محتلاً مكانه في الماضي.

لهذا فما اختفى أعرف كيف كان، ما تركته أو ما تركني في لحظة من حياتي ولم يعد قط إلى حيث الواقعي يتأثر بالتدرج، وحيث وضعه الحالي يزاحم ماضيه.

ربما لهذا أتذكر أبي وهو شاب، طويل القامة، نحيف، وحيوي، يحيط بذراعيه أمي العجوز المرهقة والوديدة. أتذكر الراهب سالفادور بثوبه الديني والعسكري وهو يضيق أمي العجوز المرهقة والوديدة، وكذا رجال شرطة بذيئين وهم يشتمون أمي العجوز المرهقة والوديدة. ولكنني أذكر على الخصوص طفلاً تربطه تواطؤات كثيرة مع أمه العجوز المرهقة والوديدة التي لا أتمكن من أن أتخيلها كما قيل لي إنها كانت: شابة، مفعمة بالحيوية ووديدة.

آه ! هم كانوا يطمحون إلى تغيير نظام الأشياء، متجاهلين أن لا قوة تعلو على قوة الإله (*)، وكان علينا أن نلقن نظاماً جديداً للأشرار، كان علينا أن نمجد نصرنا.

لما رجعت، أبانا، مدنسا بالمصائب والخطايا، باحثاً عن العضو بالمدرسة الإكليريكية، ربما كان عفوكم سيكون أفضل من الاختبار الممدد الذي قررتم، أنتم أساتذتي، أن تخضعوني له. كان تكويني أعلى من أغلبية زملائي، ولكنني قبلت بطيب خاطر أن

ألتحق كمدرس للأطفال وللمستوى الإعدادي بمدرسة صاكرادا فاميليا. قبلت رتبة الشماس في هيئة القديس الأب كابرييل تابوريت المتخصصة بشكل كامل في التعليم. ألتحق بهيئة أدنى لأنسى هذياني وأستعيد النور.

النور! أبانا، بكم من الحسرة أتحدث اليوم عن النور. كنت أحدث تلاميذي الأطفال عن النور لأنني كنت في حاجة إلى إيقاظ قلقهم المتبلد: «عدوا النجوم إذا استطعتم». (*) كنت أقول لهم، لجعلهم يحسون بضالة حجمهم، إنهم من مستوى أدنى ومطالبون بالخضوع. لكن النور يتأخر كثيرا في اجتيازه للعتمة والألم! بأي إبداع عميق خلق الإله الألم! في الحقيقة، يتبين لي الآن أن ما أريد التحدث عنه هو الألم، ذلك أني تعلمت أن النور والألم يشكلان جزءا من التوهج نفسه.

بدأ كل شيء مع تلميذ غريب الأطوار كان ضمن الأطفال الذين أعلمهم. يعلم الإله وحده لماذا من بين مائتين وثلاثين تلميذا كان عليّ أن أنتبه إليه. جميعهم كانوا يعانون سوء التغذية، لذا فهزاله ما كان يعني شيئا. جميعهم كانوا مطيعين بشكل كبير، وخنوعين بشكل كبير، مما جعل بؤسه يذوب وسط هذه الشرذمة من الأطفال الخائفين الذين كانوا يعتبرون ثوب الراهب رمزا للسلطة المستعادة، الثوب الآخر لجيوش الإله. كان يلعب في الاستراحة، نعم، مثل أقرانه، ويظل صامتا في الصفوف مثل أقرانه، ويصغي في القسم مثل الآخرين... لكن شيئا ما كان يميزه وبدأ يثير انتباهي بالتدريج. أول ما فاجأني هو تمكنه، بالرغم من عدم تجاوزه سبع سنوات، من القواعد الأربعة، في

حين كان زملاؤه يتلثمون إزاء كتاب مبادئ القراءة محاولين ربط الحروف فيما بينها لتشكيل كلمات ما كانوا يتمكنون من فهمها. لورينصو، وهذا اسم الطفل، كان يقرأ باسترسال، بالطبع.

هيا لورينصو، إنها الثامنة.

بحث لورينصو بين الملاءات عن نتف الحلم الذي توقف. سنصل متأخرين إلى المدرسة... ساعد لك الضطور.

كان فصل الشتاء ملتصقا بالشرفات مترصدا الهواء الفاتر ورائحة الهندباء المنبعثين من داخل المنزل. كان بإمكان لورينصو أن يتحمل كل شيء باستثناء الجوع لذا نهض بطواعية وتؤدة. لبس المعطف فوق المنامة وعبر الممر نحو المطبخ الموجود في الجهة الأخرى من المنزل. وكان أبوه، وقد ارتدى ثيابه من دون أن يحلق لحيته، يحاول أن يضمن على الأقل أن موقدا سيحتفظ بالحرارة الكافية لتدفئة الحليب.

- صباح الخير، يا بني.

صوت آت من الحلق وحركة لا حماس فيها كانا الجواب الوحيد للورينصو الذي ترك نفسه يتهاوى فوق الكرسي الوحيد الموجود بالمطبخ.

بالإضافة إلى الموقد الحديدي، كانت هنالك طاولة من الرخام موضوعة فوق كتلة من الحديد المنصهر مصبوغة بطلاء يشبه لون الذهب وحوض غسيل من الحجر الاصطناعي يشبه الغرانيت. وكانت صفيحة من الزنك فوق مخزن الفحم تستعمل كرف لما لا يحصى من القدور ومقالات مرتبة بشكل دقيق كانت

تلمع بفعل نظافتها.

كانت النافذة تفضي إلى فناء ضيق يسمح بتخمين ضوء النهار وبعض الستارات والمصباح المطفأ تحمي حميمية المطبخ. وفي الفناء، كانت أصوات متداخلة وخلط لا يتوقف للبيض تؤكد أن اليوم كان قد بدأ.

- اشرب الحليب

لم يكن خبز الجاودار يطفو. كان ينزل إلى قاع الفئجان الكبير الذي لم تكن له قبضتا يد، لكن الجوع كان قد تم ترويضه، مما كان يجعله ينتظر بحكمة أن تمتص كسر الخبز الجافة تلك الحليب وتصبح صالحة للأكل.

- أبي، لا أريد أن أذهب إلى المدرسة.

- ما الأمر؟

- إن الراهب سالفادور يترصدني...

ظل الحديث معلقاً في الهواء، ذلك أن الأم، وقد ارتدت ملابسها، دخلت إلى المطبخ حاملة ثياب الطفل، ويحنان مستعجل وفعال، غسلت وجهه بفوطة مبللة بماء دافئ من قدر موضوع هو الآخر فوق صفيحة الموقد، ألبسته الجوارب وخلعت عنه المعطف وسترة المنامات لتلبسه قميصاً من فائنة ذات لون رمادي. كان كل هذا يتم من دون أن يتوقف لورينصو عن تناول فطوره المكون من الحليب وخبز الجاودار. ثم ألبسته قميصاً من الصوف الصفيق، ووجدت صعوبة لا بأس بها عند المرور عبر الرأس ومن دون أن ترفع، بالكاد، ابنها من فوق الكرسي حيث كان متهاكاً، نزعته عنه سروال المنامات لتستبدله بسروال قصير

بدرع الصدر جاعلة إياه، بمهارة ممارس لألعاب سحرية، ينزلق تحت المعطف الصوفي إلى أن تمكنت من أن تزرر له الحمالتين. وصادفت نهاية الفطور عملية تسريح للشعر تمكنت بصعوبة من التحكم في زحمة بقمة الرأس كانت تمنح الطفل مظهرًا شبيهاً بمن هم في حالة فرار. كان معطف من قماش أزرق محكوك من الكوعين ولفاع أخضر يغطي وجه لورينصو حتى العينين بمنزلة الإشارة إلى أن الوقت المسموح به كان قد انقضى.

- أسرع. سنصل متأخرين إلى المدرسة. امنح قبلة لأبيك. كل الطاعة التي أبان عنها وهو يتم غسله والباسه وتسريح شعره في الوقت نفسه الذي كان يتناول فيه خبز الجاودار مع الحليب تحولت إلى حركة تعويج للضم فيها دلال وموجهة إلى أبيه.

- لا أريد أن أذهب إلى المدرسة، يا أبي.
- تكلم بصوت خافت فقد يسمعك أحد ما.
- يقول إن الراهب سالفادور مهووس بمضايقته.
- هذا صحيح. يطرح عليّ دوماً أسئلة تلو أخرى حتى خلال فترة الاستراحة.

تبادل أبواه نظرات بتواطؤ خفي. ويرغم الاستعجال، فإنهما حاولا التقليل من أهمية فضولهما.
- وعمادًا يسألك؟

- مثلاً ما مهنة أمي، ولماذا لا تأتي أنت قط لمرافقتي إلى المدرسة... وإن كانت تعجبني الكتب... يسألني عن كل شيء.
- وأنت لماذا تجيب حينما يسألك عني؟

- بأنك ميت.

لديّ، أبانا المبجل، ذكرى عذبة عن طفولتي. خشوع أبوي وفضائل أساتذتي لقحتني منذ صغري حب الله. أحببته عندما كنت طفلا، والتحقت بالمدرسة الإكليريكية لما حانت لحظة تقديم حياتي للقديسة الأم الكنيسة. الآن أتذكر ذلك كأن جسمي لم يوجد قط، وكأن العنصر الوحيد في حياتي كان هو الاستعداد الفطري للتضحية. بعد ذلك تركتني موجة من التفاني والآلام على هامش الحياة، وبدأت تتشكل لديّ روح راضية راغبة في التملك البطولي للفضائل اللاهوتية والوصول إلى الاقتناع الراسخ بالإيمان وبالصمت الحميمي للتأمل.

ربما لذلك، أبانا، عندما قذف بي إلى الحياة، وهي دائما ملوثة بالرشوة والفضوى، فاجأتني وأنا عاجز، ذلك أنه إلى حين اللحظة التي رأيته فيها، لم أكن أعرف ما الشر، وأعتقد أن الشر نفسه كان على علم بذلك.

صحيح أنني قبلت بطيب خاطر أن أتوحد مع الحرب الصليبية، ولو كانت ساعتى قد أزهت خلال المواجهة ما كنتم لتقولوا عني، أنتم والمقربون مني، إلا الشيء نفسه الذي قاله «الأب» عن «الابن»: التضحية هي لمن يرغب فيها (*). صحيح أنني أنا الذي رغبت في التضحية، لكن صحيح أيضا أنني لم أحس قط بمدى الفظاعة التي كانت قد لحقت بالعالم. متبجح، مبتذل، كذاب، آثم ويطولي. وبالتدريج، بدأت أتخلى عن يقظتي كأني كنت بصدد خسران المعركة.

الآن يمكنني أن أتحدث عن كل ذلك، وإن كان التذكر يكلفني

الشيء الكثير، لا لأن الذاكرة قد ذابت، بل بفعل الدوار الذي تسببه لي طفولتي. أتذكر تلك السنوات باعتبارها شساعة قضيتها في مرآة، مثل أمر كان عليّ، لسوء طالعي، أن أتألم بسببه وأن أتأمله في الآن نفسه. في هذه الجهة من المرآة كان هنالك التغاضي والتظاهر. وفي الجهة الأخرى، كان هناك ما يحدث حقيقة. اليوم، مازال يخيفني ما أتذكره بخصوص الطفل الذي كنته، فمع مرور السنوات، تفرض قناعة محددة نفسها ومفادها أنني لو لم أكن طفلاً لما حدث شيء مما كان سيقع.

كان هنالك عالم يسمى الكالا ١٧٧، وكان الطابق الثالث، والمنزل حرف س بمنزلة قارتي الأرضية. كان هذا الكوكب ينتمي إلى كون شاسع ومراقب، وكان عبارة عن كتلة من المنازل مثلثة تحدها شوارع الكالا ومونطيسا وأيالا. كتلة من المنازل ليس لها أربعة جوانب مثل الكتل الأخرى، ومع ذلك كانت هي عالمي! وبعيدا عنها كانت هنالك مجموعة من الكواكب الأخرى: شارع طوريوخوس وغويا من جهة، ومن جهة أخرى عالم لافوينتي ديل بيرو الكئيب وساحة مانويل بيصيرا، حيث كان يقيم أطفال أكثر فقرا منا وكان يجمعنا بهم كره متبادل وغير مبرر، يجد تفسيره فقط في أنه في تلك الأيام كان كل شيء تابعا لرؤية ما: الأرضية، الكرة، الخدروف، المحاة والأصدقاء. بالإضافة إلى ذلك، أتذكر وجود سرداب رطب كان أقرب الطرق إلى مدرسة ساكرادا فاميليا، وقصر صغير كان يحتل زاوية شارعي نافاريس وأودونيل. ريع ساعة من المشي قطعتها، مرافقا أو وحيدا، آلاف المرات، ومع ذلك فإني أشعر بهذه الذكرى بعيدة عني إلى درجة أنني لا أتمكن من

إعادة تشكيل تفاصيلها . في الحقيقة، فقط عند العودة إلى كتلة المنازل حيث أقيم كنت أستعيد الشعور بأنني قد عدت إلى عالمي . ولكن من بين كل الذكريات، كانت أهمها على الإطلاق أنه كان لديّ أب مختبئ في دولا ب.

اليوم أظن، أبانا، أن ما أثار انتباهي هو شيء يميزه عن الآخرين: كان طفلا حزينا ولكن بجدية لا تناسب سنه . في لعبه من دون نزاع، في طاعته من دون خنوع، في رغبته في التعلم وفي افتخاره بما يعرف، وفي صمته... ربما ذكرتني طفولته بطفولتي، وأردت أن أستحضر من جديد عبر ذلك التلميذ الطفل الذي كنته . فكرت أنه قد يكون قسيسا جيدا بكنيستنا . يا لطيبوبتي! سجلت نقاطا أخرى تميزه: أتذكر أنه عندما كان كل الأطفال يقضون في الصف بطريقة عسكرية، قبل الخروج من المدرسة، وينشدون في المساء نشيد «الوجه مقابل الشمس» لتوديع يوم من التعلم البهيج، لم يكن لورينصو يتقاسم روح «السهم» التي كان يظهرها أقرانه . كان يلتزم، نعم، بالوقفة، ولكني ذات يوم اقتربت منه بشكل خفي من الخلف واكتشفت باندعاش أنه كان يرفع يده إلى الأعلى، ويحرك شفتيه ولكن دون غناء . كنا نطلب منه أن يعلن حبه لوطنه فيرد علينا بصمته .

عاقبته بأن منعه من مغادرة الساحة ما لم يغن النشيد بأكمله، ولكنه لم يغن . ظل منتصب القامة بذراع مرفوعة إلى الأعلى من دون أن ينطق حتى بالبيت الأول . لا أدري ما الذي تحكم في أكثر، هل الغضب من تمرده أم سعادتي بالفرصة المتاحة لي لكي أخضع لسلطتي ابنا كافرا في قرن من دون

إيمان. «أنشد!» أمرته، «إنه نشيد من يريدون التضحية بحياتهم من أجل الوطن!» «ابني لا يريد أن يموت من أجل أي كان، إنه يريد أن يعيش من أجلي»، قال صوت ناعم وعذب وراء ظهري. استدرت وكانت هي.

الآن أتبين مغزى جملة القسيس: نظرة امرأة جميلة، ولكن من دون فضيلة، تحرق مثل النار. أنا كنت أجهل حينذاك أنه بتلك الطريقة كان يولد هذياني.

أناما الطفل وظلا صامتين في غرفة الأكل المغلفة بالظلام. كان الصمت يشكل جزءا من حديثهما لأنهما معا كان يخفيان شكواهما. وعلى الرغم من أن نافذة غرفة الأكل، المطلّة هي الأخرى على الساحة، كانت مغطاة بستار غليظ من ثوب قطيفة أزرق، إثر أزمنة أخرى، إذ قبل بيع كل ما يمكن بيعه، كان هناك صوان برؤوس محاريبين من القرون الوسطى، وخزانة بصحون من الخزف الإنجليزي وحتوت غريب من بللور مورانو بضم مفتوح، فقد كان الزوجان يظلان في الغرفة المضاءة فقط بالنور المنبعث من الممر، حتى لا ينتبه أحد إلى أن هنالك راشدين يعيشان معا بهذا المنزل.

كلما كان ضوء النهار أقوى من الضوء المنبعث من الداخل، تمكن ريكاردو من أن يتحرك باطمئنان أكبر عبر المنزل، متجنباً دوماً أن يقترب من النوافذ والشرفات. كانت الغرف الواقعة في آخر البيت تطل على شارع أيا لا، وفي الواجهة كانت هناك قاعة سينما الجزائر التي تكون فارغة في الصباحات. كان ذلك هو الوقت الذي ينتهزه ريكاردو، مع أخذ الاحتياطات اللازمة، لكي

يتأمل الشارع، يتأمل الناس الذين يعيشون ويعبرون مدينة ذات فضاءات عدة، محادثات، تحيات، حالات تقتضي السرعة وأخرى اختارت الاعتدال، كان يعتبر نفسه معنيا بها. ولكن لما كان يحل الظلام، لم يكن ريكاردو يدخل إطلاقاً إلى غرفة مضياء، كان ينتظر أن يتم إطفاء ضوء الممر ليذهب إلى الحمام. وكان يمشي في تكتم، حتى أنه في بعض المرات كان يحدث أن يخيف زوجته وابنه. كل شيء كان معداً لكي لا يحتل مكاناً في الفضاء المضياء.

عليّ أن أهرب من هنا، أن أحاول العبور إلى فرنسا.

بحثت إلينا عن يدي زوجها فوق المائدة. لم تكن هناك حاجة لتكرار أن الوقت ما كان قد حان بعد، وأنه يتعين أن تخفت حرارة الانتقام، وأن حكومة فيشي كانت لا تتردد في طرد أعداد كبيرة من اللاجئين الإسبان، وأنه إذا تعلق الأمر بمشروع هروب، فسيهربون مجتمعين، هما الاثنان والطفل. وأنها لن تعود قط إلى الافتراق عما تبقى من أسرتها. كانت ابنتها الكبرى إلينا قد هربت مع شاعر مراهق عند نهاية الحرب ولم يصلهم قط خبر عنها. لم يتجرباً حتى على السؤال إن كانت حية.

حامل في شهرها الثامن، هربت ابنتهما إلى مدريد قبل انتهاء الحرب بأشهر ذاهبة إثر شاعر في طور التعلم كانت هيئته تتغير حينما ينشد أشعار كارصيا لاصو.

كان الفتى قد نشر بضعة أشعار في جريدة «عالم العمال»، وفي بعض منشورات «الجيش الشعبي»، وكان يخشى أن يعدم بسبب ذلك. اختبأ بمنزل أولاليا، خادمة قديمة لوالدي إلينا، إلى أن أتيحت لهما فرصة الخروج من مدريد في شاحنة كانت

تنقل ماشية إلى بلد الوليد. لم يتلقيا أخبارا عنهما وإن وجدا
عزاء في فكرة أنهما تمكنا من أن يعبرا إلى منفى ما.

الحديث دوما بصوت خافت يذيب الكلمات بشكل تدريجي
ويختزل المحادثات في تبادل للحركات والنظرات. الخوف، بما
أن الصوت يظل حاضرا، يجعل الأصوات غائمة، لأن الجانب
الغامض من الأشياء لا يمكن التعبير عنه إلا بالصمت.

كنت ساذجا، يا أبانا، لأنني كنت أعتقد أن كل الأشياء كان لها
اسم، أي أنها كانت مرتبة. كنت أظن أن ذلك كان أساس الانسجام.
بالنسبة إليّ، كان كافيا أن أسمي الأشياء بأسمائها، أن أبحث عن
المشاعر في معجم «التعليمات المقدسة» لمعرفة إن كنا نتحدث عن
الغضبان أو عن الهلاك. لكن هناك منطقة بين بين، أبانا، لا هي
موجودة حيث الخطيئة وعقابها، ولا هي موجودة حيث الفضيلة
وجزاؤها: إذا كان عليّ أن أرسم خريطة سأرسم مجالا واسعا
معتما، وسأتجرا، اعتمادا على الحق الذي يمنح للمكتشفين،
أن أسميه إلينا. إلينا كانت هي، أم لورينصو. حيث توجد إرادة
طيبة يوجد حب حقيقي، وحيث توجد إرادة مغشوشة، يوجد
حب كاذب(*).. كان القديس طوماس سيفاجأ بتعقد خريطتي!
هنالك جانب مضطرب في كل المناظر التي لا نستطيع أبدا
اختزالها في جغرافية بسيطة. أبانا، توجد نقطة غامضة لم
يتأملها آباؤنا: في المساحة الفاصلة بين الرصين والحقير
هناك حقل شاسع غير محسوم يتنازعه الخير والشر، مجال
ملتبس، الآن أعرف ذلك، هو ذاك المرتبط بالتحديد بأبناء آدم.
أبانا، ينبغي أن يكون المرء الابن الأثير لـدى الإله حتى لا يكون

مضطرا للاختيار بين الإلهي ونقيضه. أنا إنسان فقط، أبانا، ابن الخطيئة الأصلية واللعنة التي تستتبعها.

كان منزلي يتوزع إلى قسمين يفرقهما ممر. وكانت البناية كذلك مقسمة إلى قسمين: المنازل بشرفات مطلة على شارع الكالا، وكانت تقطن فيها العينة الراقية من الجيران، والمنازل الأكثر تواضعا وهي المطلة على شارع أياالا. نحن كنا نساكن بأحد هذه المنازل الأخيرة.

وعلى الرغم من أنني أستطيع أن أصف ذلك المنزل شبرا شبرا، فإن ما لا أستطيع محوه من ذاكرتي هو النوافذ المترصدة بشكل دائم لحيواتنا والتي كانت تمثل الجانب الهش من راحتنا الأسرية. عندما كنا نتركها مشرعة، كان بإمكانني أن أتكلم بصوت عال فقط مع أمي، وليلا، كان يتعين انتظار خروج أبي من الحجرات لإشعال الضوء. كل هذه اللعبة، لعبة حالات الصمت والعمات، كانت تترك مكانها لعنصر ثالث كان يجمد أي وضعية حينما يعلن عن نفسه: أزيز المصعد.

منذ لحظة انطلاقه إلى أن يصل إلى شقتنا في الطابق الثالث، ينقضي وقت كنا جميعنا قد استبطناه وقسناه بشكل دقيق. إذا ما توقف في الطابق الثاني، أو تابع إلى الأعلى، كان كل شيء يتواصل من النقطة التي توقف فيها. وإذا توقف في الطابق الرابع، لا يتجمد الزمن فقط، بل يتحجر الهواء كذلك، إلى أن نسمع رنين الجرس بأحد المنازل الثلاثة المجاورة لنا. من بين كل أنواع الضجيج، من بين كل الأصوات، من بين كل تعابير الحياة حولنا، كان لأبي ولأمي ولي أنا أيضا تصنيف دقيق لتلك

التي تنذر بخطر ما، ولتلك التي تندرج ضمن الأشياء الرقيقة. لا أحد كان يشير إلى حالات الصمت التي يسببها المصعد، كما أنه لا أحد كان يعلق حين يختبئ أبي، إذا ما طرق أحد الباب، بدولاب يوجد بتجويفة وراء خوان للزينة بمائدتين صغيرتين تتوسطهما مرآة. لم يصنع الدولاب قصد تأدية الوظيفة التي يقوم بها الآن. قبل اندلاع الحرب، ومستفيدين من اعوجاج يسم غرفة النوم التي تبدو الآن مربعة، صنع أبواي فضاء مثلثا محتجبا وراء حاجز إسمنتي كانت تستند عليه مرآة بإطار من خشب المغني الغامق تصل حتى الأرض، وكانت في الأصل بابا لدولاب كبير مركب بتجويفة. كان يسع إنسانا بشكل مريح، سواء كان جالسا أو واقفا، وكانت مفصلات الباب مخبأة بسبحة ضخمة بخرزات من الخشب مع صليب فضي بصورة مسيح مشوه ولكن بتعبير ألم كان من القوة إلى درجة أنني كنت أحرص ألا أظل وحيدا في تلك الغرفة.

بالإضافة إلى سريرين مطليين بالنيكل بمقدمتين مزينتين بأوراق معدنية من الدالية وزجاج مستطيل، كان هناك دولاب ضخم بثلاثة أقسام ويقمر ضخم في الجزء الأوسط أسعفني على أن أحلم في عالم كان يميني هو يساره والعكس كذلك. أذكر أن أبي عرّف حيرتي بأنها عبارة عن «وجهات نظر مختلفة لحظة رؤية الأشياء». بهذا الدولاب، كانت تحفظ ملابس وملايس أمي. كانت تلتصق بها رائحة النفطالين. أما ملابس أبي فكانت تخبأ معه في مخبئه. احتفظت برائحة هذا المخبأ وتعرفت عليه في المطابخ الفقيرة، في الأظافر المتسخة، في النظرات المنهكة،

لدى اليائسين من الشفاء، لدى من أهانتهم الحياة وفي أكشاك الحراسة بالثكنات. في السجون لا توجد هذه الرائحة، هناك رائحة المطهر ورائحة البرد.

شعرت بأني راع وسعدت بمعرفة أن من بين قطيعي كان هنالك ضالون. كم كان من الصعب عليّ، أبانا، أن أعرف أنني كنت أنا الذئب! مثل بوسوي، قمت بتجميع كل معاناتي لأجعلهم يشربون أسرار الإله. ابتدأت في تصيد اللقاءات.

لم أعد قط إلى إلزام الطفل بأن ينشد برغم أن تظاهره ما كان يخفى عليّ. كان التلاميذ، حينما يتفرقون، يهجمون ناحية بوابة المدرسة. كنت أتبع سلوك لورينصو، وفي أكثر من مرة أتيحت لي فرصة لقاء أمه. في البداية كنا نكتفي بالتحية، وعلى الرغم من أنها كانت تتهرب من محادثتي، فإننا بالتدريج بدأنا نتبادل بعض التعليقات بخصوص الطفل، وبعد ذلك بخصوص الطفولة الطائشة، حول مهمة المربي ومواضيع أخرى كنت أظن أنها ستؤدي بنا إلى الحديث عن حقائق الروح.

كنت ألاحظ، أبانا، أنني أستمتع حينما أكون إلى جانبها، ولكنني فكرت أنه إذا كان الإله قد أراد منح الإنسان مرافقة مماثلة شبيهة بأول مخلوقاته، كذلك كانت إرادته بأن أحس بهذا الرضا الذي أحسه. كان لورينصو يلتزم الصمت وإن كان من المؤكد أنه كان يبحث بنزق عن نظرة أمه، لكنني، بعيدا عن ملاحظة التواطؤات التي تجمع بينهما، كان يرضيني كذلك الحب الذي كانت الأم تلهمه لابنها. السمكة كثيفة وغامضة الكثافة وغامضة حتى أنه يصعب اختراقها، أبانا.

لا أنكر أنني تعرفت في إلينا على بعض ملامح حواء، ليست حواء الرائعة، النقية، اللطيفة، التي خلقت لتأسر قلب الرجل وتصعد معه في تحليق مشترك، بل حواء الساقطة، العارية والنادمة، وأول من أشاع الشر. ويرغم ذلك، أدرجت ضمن عاداتي مرافقة لورينصو وأمه خلال جزء من الطريق الذي كان يقطعانه للعودة إلى المنزل. كان هناك شيء في إلينا يحثني على أن أخوض معركتي الخاصة. كانت لحظات سعيدة تلك التي قضيتها برتبة شماس بتلك المدرسة.

لن يعود الطفل إلى المدرسة. قلبي لهم إنه مريض.
هذا سيثير مزيدا من الشبهات.

ولكننا لا نستطيع أن نطلب منه أن يتحمل إلى ما لا نهاية مضايقات ذلك الراهب. علينا أن نلحقه بمدرسة أخرى، أن نفعل شيئا ما.

سنتحمل معا هذا المتطفل. لا تقلق.

كل صباح، كانت ممانعات الطفل لكي لا يذهب إلى المدرسة تتخذ أشكالا جديدة. في بعض الأيام كان يتظاهر بأنه مصاب بسعال جعله يقيء فطوره، وفي أيام أخرى كان يتظاهر بألم شديد في المعدة يبقي رأسه بين الركبتين بينما الأم تحاول إلباسه بكل لطف، ومرات كان يكتفي بأن يبكي باستسلام.

وفقط حين يصبح من البين أنه لا مناص من أن يذهب إلى المدرسة، كان يترك جانبا شكاواه ليتبنى مقاومة سلبية كانت تضاعف الوقت المطلوب لخطو خطوة، لتلقي قبلة، أو حفظ دفتر التمارين بالمحفظة الجلدية.

كانت إلينا، عند الوصول إلى باب المدرسة، تدفع ابنها بنعومة إلى داخل الساحة وتهمس في أذنه بجملة متواظئة:

علينا أن نكون قويين لمساعدة الأب. إنه في حاجة إلينا.

بعد ذلك، كانت تظل إلى جانب سياج البناية إلى أن تشرع جوقة من أصوات طفولية في غناء «جبال مكسوة بالثلج، أو أي نشيد وطني آخر. رتابة الغامض كانت تبدأ مع حنان هذه الأصوات التي تمجد ملاحم مجهولة بكلمات لا تفهم معانيها. كانت أزمنة ملتبسة ولا أحد كان يفهم ما يقع.

متدثرة بمعطف غامق اللون وبياقة من قطيفة واسعة ومدورة، عادت إلينا حتى تقاطع شارعي الكالا وكويا لتستقل المترو الذي كان من عاداتها أن تستعمله قاصدة أركييس، حيث، على بعد أربع كتل من البنايات، كانت توجد مقالة هيليسيس، شركة إسبانية - ألمانية تابعة للدولة تقدم خدماتها لمقاولات أخرى من القطاع العام وتعمل في مجال الملاحة الجوية، ومن هنا تكليفها لنا بإنجاز بعض الترجمات.

هذا العمل، بالإضافة إلى تأمينه لبعض المال يخصص لمصاريف المنزل، كان يعطي لإلينا الحق في أن تأخذ من إدارة الإمداد والتمويل بجيش الطيران قطعتين من الخبز الأبيض في الأسبوع كانت تتلقاهما بفضل بطاقة التمويل المسجل بها اسمها واسم ابنها فقط.

كان الزوج، في الحقيقة، هو من يقوم بالترجمة، وكان بهذه الطريقة يخفف عن نفسه الإحساس بأنه عالة على زوجته وابنه. وكان استعمال الآلة الكاتبة ذات اللون الأسود ومن صنف

أوندرود، مقتصرًا هو الآخر على الأوقات التي تكون إلينا موجودة فيها بالمنزل. وإذا خرجت، كان ريكاردو يقوم بعمله بشكل يدوي ويرقنه على الآلة الكاتبة في ثلاث نسخ من ورق الكريون حينما تقوم هي بترتيب المنزل بصمت أو تخطط بيدها لأنه ما كان ينبغي الجمع بين صوت آلة الخياطة، التي كانت من صنف سانخر ومصبوغة بالنيكل وموضوعة فوق أرضية من الخشب ومستندة على كتلة من الحديد المسبوك بشكل حديث، وبين صوت الآلة الكاتبة.

ولواجهة متطلبات المنزل، كانت إلينا تعمل بديكان لمنسوجات نسائية تخاط على المقاس بشارع طوريوخوس، وكان يحتفظ لها بالعمليات التي تتطلب قدرًا معينًا من المهارة. كانت منتوجاتها تنعت دومًا بالمتقنة، ومع ذلك لم تكن السيدة كلوتيلد ترفع من قيمة أتعابها.

ذلك اليوم، لما عادت إلى المنزل حاملة دراسة كان ينبغي ترجمتها بشكل مستعجل، قالت لها ماريا، حارسة العمارة، إن رجل دين جاء لزيارتها وإنه، بالرغم من إخبارها له بأنها لم تكن بالمنزل، ألحّ لكي يصعد وظل فترة لا بأس بها يدق جرس منزلها. هذا العالم كان مقسمًا بوضوح إلى قسمين: القاتم والمضيء. إلى القسم الأول كانت تنتمي المدرسة، أسئلة أساتذتي والصمت. إلى القسم الآخر كان ينتمي جزء من حارتي وطريقة أهلها في ربط صلات معي. ومع المسافة، لديّ شعور بأنني كنت مثل بندول، إذ كان بمقدوري أن أكون في هذه الجهة أو تلك من دون أن أرتكب خطأ وذلك بفضل تعليمات المرأة.

بالمنزل كنا نعيش تواطؤًا ثرثارًا، وفي الشارع كنا نعيش صمتًا ضاجًا. كان عليّ أن أضع جانبًا، حين أوجد بالخارج، ما كان أبي يعلمني بالمنزل وأن أسجل ما هو مهم فيما يقع بالخارج حين أوجد بالمنزل. وكانت العلاقة مع بقية أطفال الحي، مثلًا، بمنزلة تمرين على توازنات محفوظة بشكل جيد.

وعلى الرغم من أننا كنا نذهب إلى مدارس مختلفة، فإننا كنا نعيش في كتلة منازلنا من دون أن نأتي بأي شيء من الخارج، ولا حتى بذكريات، ولا حتى بالخوف الذي يولده لدينا أساتذتنا. في زاوية شارعي الكالا وأيالا، وهي الزاوية الحادة بكتلة منازلنا، كانت توجد عيادة لطب الأسنان عبارة عن متجر من دون مساحات عرض، بمصطبتين صغيرتين من الرخام في كلتا الواجهتين، واحدة بشارع الكالا التي كنا بالكاد نستعملها لأننا كنا نعثر بها دوماً على مخاط دم المرضى، والأخرى كانت بشارع أيالا الذي كان المنطقة الأقل استعمالاً للعبور، لذا جعلنا من هذه المصطبة نقطة تجمع أطفال كتلة منازلنا. كنا نلعب ألعاب أطفال لا يملكون لعباً: لعبة عظم الكعب، لعبة الإنقاذ، لعبة السوط وألعاب أخرى كنا فيها الضحايا والجلادين، ألعاب كان العقاب فيها دوماً مؤلماً والجائزة هي إيلام الآخرين. كان ذلك شكلاً آخر لمجاراة الأزمنة التي نعيش فيها.

كان جميع الأطفال كثيراً ما يتحدثون عن آبائهم. كان أحدهم، اسمه تينو، له مظهر جرو كبير وعينان مختلفتا اللون، وكان فخوراً بأبيه لأنه كان مهيج ثيران بالإضافة إلى عمله بإحدى الإدارات. كنا نستمتع عندما كانت العربة الكبيرة

للفرقة تأتي لأخذ هذا الأب الذي يظهر بالبوابة، طويل القامة، رصينا بلباسه المثير الذي يلمع. أحد أفراد مجموعة الزاوية، بيبي أميكو، كان يتباهى باصطياد أبيه للطيور أيام الأحاد بباراكويوس ديل خاراما: بشباك في فصل الصيف وبمصيدة في فصل الشتاء. كان منزله الصغير والفقير مملوءا بأقفاص فيها طيور الكناري التي كانوا يغطونها خلال الليل لترتاح من تعب حركتها التي لا تتوقف خلال النهار. كنا معجبين بأب بيبي أميكو لأنه كان يملك دراجة نارية صغيرة ماركة خيليرا بمحول للسرعة في مخزن البنزين، ومهما كانت السرعة التي كان يقود بها، كان يتعين عليه أن يطلق يدا من المقود لتحويل السرعة، وكان هذا يبدو لنا أمرا باهرا خاصة أنه كان أعرج وله إضافة ضخمة بالحذاء الأيمن.

أتذكر كذلك الأخوين شابوري. كانت لهما اثنتا عشرة بقرة في الساحة الداخلية للبناية تسمح بتأمين احتياجات الحليب للجيران الذين كانوا يأتون للشراء بأوعية من الألومنيوم. كان الأب يحلب البقرات، وفي المرات القليلة التي سمح لنا بالمرور لرؤيتها، كنا جميعنا نفكر في الشجاعة التي يتطلبها حلب تلك الحيوانات البالغة الضخامة والتجهم.

بإمكاني أن أعد الأسباب التي جعلتنا جميعنا نعجب بأباء القاطنين بكتلة منازلنا. وكان هذا رد الاعتبار الوحيد الذي تلقيناه عندما شاع خبر أن أبي ليس فقط لم يكن ميتا، بل إنه كان يرعاني من داخل دولاب.

الآن، أبانا، بقي لي فقط حطام الذاكرة. التبريرات الحقيرة

لسلوكي. عليّ أن أبدأ بالقول إنني ما كنت أعرف سببا لشروعي في ملاحقة إلينا عندما كانت تترك الطفل بالمدرسة. لو أن أحدا سألني حينذاك لوجدت عذرا في أن شيئا غير واضح كان يلغ تلك المرأة. لتبرير هذه الإجابة، لجأت إلى ملازم ثان مؤقت كان مكلفا بمهمة مأمور بوزارة الداخلية. عبره علمت أن ريكاردو دوماصو، زوجها، كان مدرسا للأدب بمعهد بياتريس كاليندو، ومسجل على أنه في حالة فرار. في سنة ١٩٣٧، كان أحد منظمي المؤتمر الدولي للكتاب المناهضين للفاشية حيث أعلن تبنيه للفكر الماسوني وتبجح بصداقته الشخصية مع الشيوعي أندريه مالرو والروسي إليا إيهريمبورغ. كان كذلك عضوا باللجنة التي أرسلت في سبتمبر ١٩٣٦ من طرف الحكومة الشيوعية إلى بيلموت لتحويل قرارات عدم التدخل المتخذة من طرف فيدرالية النقابات الإنجليزية. معلومات قليلة أخرى كانت متوافرة عنه فيما عدا أنه كان بالفعل متزوجا بإلينا وكان له ابنان، إلينا المولودة سنة ١٩٢٢ ولورينصو الذي كان له الآن سبع سنوات. وليس هناك دليل رسمي على أن أحدهما قد تم تعميده. توجهت إلى الأبرشية المعنية، أبرشية كوفادونكا الواقعة بساحة مانويل بيسيرا، ولم أعثر على شهادة التعميد لأي من الولدين. هما معا ولدا قبل الانقلاب، ومن ثم لم يكن هنالك أي تفسير، بما أن هذه الأبرشية، بشكل معجز، لم يتم إغلاقها ولم تتعرض لأذى خلال ثلاث سنوات من الحرب المتواصلة. كذلك فوجئت بأنهم لم يشيروا إلى الأخت الكبرى، التي على الرغم من صغر سنها، كانت قد اختفت من حياتهم.

قد يذهب الظن إلى أن أن ذكرياتي توجد على هامش ذاكرة
الخوف، غير أنه، وبالرغم من مجهودات والدي لكي لا أشارك في
تلك الشعائر المتصلة بتوجسات مفروضة، كنت أنا أيضا أخشى أن
تتمزق الفقاعة التي كنا نخفي بداخلها حياتنا اليومية المألوفة،
وأن يتمكن الخارج، خارجهم، من اختراق حناننا الصامت
وسعادتنا المخبأة. أتذكر ذات يوم كنا نلعب لعبة بارتشيس، وبما
أننا كنا ثلاثة لاعبين فقط فقد كان أبواي يحرصان على أن
يكون ذلك امتيازاً غير معلن لي بأن أحتل الحيز الثالث في رقعة
اللعبة مما يجعل قطعي في مأمن من الملاحقة، وفي المقابل كنت
أنا أجد قطعهما في متناولتي. كنت أنا من عليه أن يلعب عندما
شرع المصعد في التحرك. حدث ذلك ليلاً، وكانت البوابة مقفلة،
ولم يكن هناك من يجروء على السهر. كان يبدو أن لا أحد يعير
اهتماماً لصريير المصعد المتمايل، ولكن كل شيء توقف عند
رباطة جأش كانت تبدو كأنها لا تبالي بما نسمع وإن كانت تبرر
كل هذا الصمت الذي ساد.

كان الوقت متأخراً وكان اليوم يوم سبت. توقف المصعد في
الطابق الثالث. تحول الصمت إلى سكون، والدلو الصغير
والزهر ظلاً معلقين في الهواء إلى أن رن الجرس.
حوالي، بدأت حالة فوضى مخطط لها. توجه أبي بسرعة إلى
دولابه، وأزال أمي قطع لعبه من طاولة اللعب، قطعه فقط،
وأنامتني، وكنت قد ارتديت منامتي، بأحد أسرة غرفة نومها.
مهما وقع، تظاهر بالنوم. قالت لي.
أعادت وضع السبحة التي كانت تخفي مفصلات الدولاب

حيث كان يختفي أبي، ويعد أن تأكدت أن كل شيء كان في مكانه، ذهبت لتفتح الباب الذي كان يطرقه الزائر غير اللبق.

كانت الغرفة قد أصبحت مظلمة، وعندما فتحت أُمي الباب للزائرين، عاد الصمت كأن لا أحد أفزعها، غير أنني في تلك اللحظة تذكرت أننا، بسبب الاستعجال، لم نخبئ الأوراق الموضوعية فوق طاولة أبي. الآن أحكي هذا كأني أحكي عن شيطانات طفل آخر وأجد من المستحيل، لأن الخوف لا كلمات مرادفة له، أن أصف المجهود الخارق الذي كان يعنيه بالنسبة إلى ذلك الطفل الذي احتفظ به في الذاكرة فتح باب غرفة النوم مع الحرص على عدم إحداث أي ضجيج، والذهاب في الظلام حتى طاولة العمل حيث كانت الأوراق التي كان يستعملها أبي حينما يترجم، أن أجمعها في صمت في الوقت الذي كنت أسمع فيه أصواتا جافة تشتم أُمي في الجهة الأخرى من الممر، وفي الأخير أعود إلى غرفة النوم وأرمي الأوراق داخل الدولاب حيث كان يختفي أبي رفقة صمته. ما حَزَّ في نفسي بعد ذلك هو عدم تمكني من أن أحكي لأصدقائي عن براعتي.

منذ الصيف الذي انتهت فيه الحرب، لم تعد الشرطة لتفتيش منزل إلينا، ولكن خلال ليلة كانت الرقابة الأسرية تخفي فيها المذاق الحريف للخوف، قدم أربعة رجال محدثين ضجيجا يترأسهم أصفرهم سنا، بقميص أزرق ومعطف من نسيج رقيق، يضع يده على خاصرته ليطرح الأسئلة ويمسد شعره اللين وهو ينتظر الجواب. كان رجال الشرطة الثلاثة الآخرون يقدمون أنفسهم على أنهم صارمون في حين كان الشاب يعتبر نفسه رمز التأنق.

دفعاً، أوصلوا إلينا حتى المطبخ، وتابع اثنان منهم التقدم عبر الممر في حين ظل إلى جانبها الشاب وشرطي آخر. بالمسدس موضوعاً فوق طاولة الرخام، بدأ استجواب لا منطلق له، كانت إلينا بالكاد تسمعه وكانت تجيب بمقاطع ليست دائماً مناسبة للأسئلة لأن كل حواسها كانت تتابع الشرطيين اللذين كانا يفتشان المنزل.

عن الأسئلة حول إذا ما كان صحيحاً أن زوجها كان مختبئاً بمدريد، وإن كان زوجها قد مات، وإن كانت على علاقة براهب، وإن كانت ابنتها تمارس الدعارة ببرشلونة، وإن كانت لا تريد تجربة عنيفة مع رجال حقيقيين، وإن كان زوجها قد قتل راهبات خلال الحرب، وإن كانت منتمية إلى الحركة الوطنية، على كل هذه الأسئلة ردت بالإيجاب.

غير أنها أجابت بالنفي عندما سألوها إن كانت تعرف أن زوجها كان معتقلاً بسلمنكا وأنه كان يعيش مع مومس بجنوب فرنسا، وإن كانت منتمية إلى الحركة الوطنية، وإن كانت تعرف من هو والد ابنها، وإن كانت لها اتصالات بالإمبراطورية البريطانية أو كانت تفكر في الهروب إلى روسيا لتجتمع مع زوجها الذي كان أحد أعيان الجيش الأحمر.

هذا الاستجواب الذي كان بالإمكان أن يتخذ، مثله مثل الإجابات، منحى مغايراً لو أنه تم طرحه بترتيب آخر، توقف عندما ظهر أحد الشرطيين بباب المطبخ وهو يجر لورينصو من أذنه. كان الطفل من دون حذاء ويمشي على أطراف أصابعه كأنه يريد أن يطير لكي يخفف الألم.

اترك عنك ولدي! صرخت إلينا وقد اندفعت لتأخذ ابنها بين ذراعيها.

وانطلاقاً من تلك اللحظة دار الحديث بين رجال الشرطة الأربعة على شكل لعبة من البذاعات والوقاحات قيلت باستهتار وهم يتجولون بالمنزل عابثين بالدواليب والكتب وأواني المطبخ ولعب لورينصو ويكل ما كان يبدو أنه يحتل مكاناً مناسباً. لكن برغم كل الوقت الذي قضوه في غرفة النوم معلقين على الإمكانيات اللامتناهية للسعادة التي يمكن أن تمنحهم إياها تلك الأسرة في حالة ما لو كانت إلينا امرأة حقيقية، لم يكتشفوا أنه، وراء سبحة من خرز خشبي، كانت هنالك مفاصل باب تفتح على دولا ب يختبئ فيه رجل خائف من ألا يتمكن من حبس دموعه.

الحقيقة، يا أبانا، هي أنه كان يروق لي أن أراها تتحرك بين الناس، وهي تمشي خجولة ووديدة نحو منزلها بالخطو السريع لامرأة مجدة. في مناسبتين، تحايلت كي ألقاها ودعوتها إلى شرفة مقهى كانت تقدم شعيراً بالحليب وحلويات. وكان كشفي عن أفكار يلقى دوماً استجابة ملائمة من طرفها. كان كل شيء يبدو متناغماً، وكنا مثل ملاكين قادمين من جوقتين مختلفتين. لم تكن بيننا أية نقاط التقاء وعلى هذا كان يتأسس تناغمنا. أنا كنت أفكر، وهي كانت تحس، وأنا كنت أحل، وهي كانت تتألم من المرحلة المضطربة التي قدر لها أن تعيش فيها.

يفكر الرجل برأسه لكي ينزل الفكر إلى القلب حيث يعثر على القوة، بينما تتأمل المرأة بقلبها لكي تستعيد غريزتها

نور العقل. الآن أعرف أن طرائقهن لتوصيل الحقيقة هي جد مختلفة عن طرائقنا وكذا أشكال الوصول إليها. كنت أحاول كشف لغزها، وهي تحاول أن تقنعني بحسن طويتها. إذا كان الرجل من نصيبه الأصوات اللامعة والفخمة، فإن المرأة تناسبها النبرات الخافتة، اللطيفة والمحتشمة. كانت تنسجم مع نظام الكون.

كل هذا كان يخطر ببالي، أبانا، لتبرير أجوبتها غير الحاسمة، مما يقوي كل مرة من وضع إلينا كشيء مرغوب فيه. قررت أن أقترب منها أكثر وأن أبحث عن التواصل معها.

- توقف عن الشرب، ريكاردو، إنك تقتل نفسك.

- الشرب هو ما يقتلني؟ لا تتفوهي بحماقات

- نحن في حاجة إلى أن نكون في كامل وعينا لكي...

- لنعيش كأننا غير موجودين. أليس كذلك؟

- لا، لكي نعيش معا ونقاوم الوقت الذي يلزم. لا يعجبني أن

يراك لورينصو حزينا إلى هذه الدرجة. من فضلك...

بحركة سريعة أخذت الزجاجاة من فوق المائدة وقصدت

المطبخ لوضعها بالثلاجة. كان المنزل مظلمًا وكان ضوء خافت

يترك فقط إمكانية تخمين تخطيطات الأشياء. ويرغم أنها

تعرف المنزل كما تعرف راحة يدها، فقد كانت هنالك لحظات

تضطر فيها لتحسس طريقها باللمس. عندما عادت إلينا إلى

غرفة الأكل، كان الضوء مشتعلًا، وكان زوجها يطل من النافذة

المفتوحة على مصراعها. ويرغم البرد، كانت كل النوافذ تقريبا

مفتوحة حتى لا تتخلل رائحة الزبدة المحروقة والقرنبيط

المتحلل إلى فقرهم. كانت العاشرة ليلا وكان لورينصو قد نام منذ فترة.

كانها تريد أن تحميه من لسان نار، ارتمت على ريكاردو بقوة جعلتها ترميه أرضا. هكذا ظلا، وهي ملتفة حوله بجسدها، إلى أن تبين لهما أن أصواتا أخرى وحالات صمت أخرى تشير إلى عدم انتباهها إلى ما وقع. لا شيء أثر في البرد.

ومن دون أن يبديا بالكاد أية حركة، أزاها برهافة الهواء الذي يفصل بين جسديهما، وتشابكا إلى أن حجب أحدهما الآخر عن الليل ونظراته. مختبئين الواحد في الآخر تحدثا عن الخوف، عن لورينصو وشجاعته المتواطئة، عن إلينا الهاربة وعن ضرورة عدم الاستسلام للقنوط.

- ليس الأمر كذلك، إلينا، الأمر هو بمنزلة دهشة. ليس بسبب خسران حرب كانت محسومة يوم ابتدأت، الأمر شيء آخر. - ما هو؟

- أن يريد أحدهم قتلي لا بسبب أفعالي بل بسبب أفكاري... والأدهى من ذلك، أنني إذا ما أردت أن أظل متشبثا بأفكاري يتعين أن أتمنى أن يموت آخرون بسبب أفكارهم. أنا لا أريد أن يضطر أبنائنا إلى القتل أو الموت بسبب أفكارهم.

توقف عند تنهيدة صامته ومخنوقة خرجت من حلقه، فبدأت المرأة تلمها بالشفيتين، باحثة بلسانها عن عيني زوجها وضاغطة بالشفيتين لصد البكاء. نقطة نقطة كانت تمتص ألم زوجها. وكذا حنقه.

نهضت إلينا، أغلقت النافذة وأطفأت الضوء. وهي تتحسس

طريقها، اقتربت من ريكاردو الذي كان لا يزال جامدا في مكانه. أخذت يديه، وبلطف جعلته ينهض، ومن دون أن تطلق يديها أخذته حتى غرفة النوم بعدوية بدأت بقبل ومداعبات على الوجه المبلل بالدموع وختمتها بأن أزالته عنه كل ثيابه بنفس الرقة التي كانت تلبس بها ابنها. كان عليها أن تعيد تشكيل طريق المداعبات كما في الأيام الخوالي، وأن تلهث بشكل خافت لتستعيد العواطف المدفونة في زوايا الخوف. عملت على أن تبدأ يدي ريكاردو البحث عن أسرارها وانتهت راحة لتنادي بشفتيها على الصلابة المختفية تحت كل الأحزان. عندما تلقت الجواب، على الأرض لتجنب صرير السرير، انغلقا أحدهما على الآخر في تراكم من حالات التملك التي حدثت من دون لهاث، من دون صراخ، من دون قول «أحبك»، وذلك قصد مواصلة الحفاظ على سر الحياة.

من الأمور التي تثير دهشتي بشكل كبير، كوننا جميعا، من دون أن نرغب في ذلك، كانت لدينا ذكريات حول الحرب الأهلية، حصار مدريد، هول القنابل والقذائف. ومع ذلك لا نتحدث عن ذلك مطلقا.

في المدرسة، أسماء مثل فرانكو، خوسي أنطونيو بريمو دي ريفيرا، الكتائب، الحركة، كانت قد ظهرت بشكل فجائي، نزلت من السماء لتقيم نظاما بدلا من هذه الفوضى، لتعيد إلى البشر المجد والرصانة. لم يكن هنالك ضحايا، كان هناك أبطال، ولم يكن هنالك موتى، بل الذين سقطوا من أجل الإله ومن أجل إسبانيا، ولم تكن هنالك حرب، لأن النصر، حين كان

يكتسب بحروف التاج، كان أقرب إلى قوة الجاذبية منه إلى حل نزاع بين البشر.

من بين مجموعة الأصدقاء الذين كانوا يشكلون جزءا من ذلك العالم، واحد منهم فقط، خافيير رويث طابيدو، كان يرتدي أحيانا لباس السهم. كان عمره ثماني سنوات ويبدو كرجل صغير، يتحدث بصوت غليظ، ويخصله شعر لا تتحرك بفعل ملمع الشعر، وطريقة لباسه تعكس الرفاه الذي تعيش فيه أسرته. كان منزله دافئا ومضيافا، وليكرس زعامته كان هناك أخوه الأكبر، كارلوس، الذي كان يحكي لنا قصص رعب، بشغف في الوقفات الوصفية، بمهارة في خلق المواقف المخيفة، ولا زلت إلى اليوم أعجب من قدرته الفائقة على ارتجال حكايات.

على ضوء شمع كانت تمنحه ملمحا شبحيا، متحدثا بإيقاع ومضمنا كلامه تناغمات صوتية تشير العرش، كان يبتدئ قصته دوما وهو يحدثنا عن وقائع رهيبة كان قد شهداها.

كانت شخصياته الرئيسية دوما مجموعة من الأطفال في عمرنا ملاحقين من طرف جيش من المصابين بالبرص يتحركون ببطء، باعثن رسائل تهديد وياحثين عن أحشائنا كأنها إمكانيتهم الوحيدة للبقاء على قيد الحياة. لم يكن البرص مرضا معديا، كان مرضا يصيب الروح. وخطورته لا تجد قوتها في إمكانية أن يعدي ولكن في شراسته لأكل اللحم.

ترددت كثيرا قبل أن أكتب هذه الرسالة. والآن لدي رغبة في عدم إنهاؤها. لكنني أريد أن أحكي الحقيقة لأتمكن من معرفتها، لأن الحقيقة تهرب مني كما يفعل ماء المطر بين أصابع الغريق.

ما أعجز عن العثور عليه، أبانا، هو الندم ، فلا أحد علمني أن
أميز بين الحب والشهوة، وأنا كنت أظن أني بدأت في التعلق بها.
كانت الطبيعة، في نظري، هي علة الزلزال الذي كان يحدث في
روحي، وإن كان هذا قد حدث فيما بعد.

خلال سنوات عديدة، لم يضارقني الخوف من مرضى البرص،
وما كان في متخيل أطفال آخرين غولا أو عفريتا أو ساحرات
ذوات مكنسات، كان بالنسبة إليّ يتجسد في تلك الكائنات المدمية
التي تمشي ببطء ومن دون توقف وتتبعني لتأكل أحشائي وهي
تفقد مزقا من لحمها.

بقدر ما كانت الشهور تمر، بقدر ما كان ريكاردو يمسي أكثر
انطواء على نفسه. كانت إيلينا تلاحظ أنه يتأثر حينما تحكي
له عما يقع خارج تلك الجدران، وبدأت تتحاشى التعليق على ما
كانت عليه الحياة فيما وراء باب المنزل.

أن تكون المدينة قد أعادت خلق رتابتها بعد ثلاث سنوات من
الحصار، أن يتصرف الجميع كأنه لم يخسر معركة، أن
لا يكمن تواطؤ أصدقائه القدامى في رفض الهزيمة بل في مسح
الصفحة والبدء من جديد، كان ذلك بكل بساطة يهيجه.

شيئا فشيئا بدأ يصغرو ويحني رأسه أكثر. اختفى في أيام
معدودات الرجل الذي كان يعتني بنفسه، إذ توقف عن حلاقة
ذقنه، مهملا حالته، تحت وطأة الغياب الرصاصي للرغبة
وحالات شرود لا يمكن اختراقها.

نادرا ما كان يظهر من جديد الرجل المستقيم والحازم الذي
أسر إلينا في أزمنة كانت للكلام فيها أهميته لأن به كان يتم بناء

الفكر، ونادرا ما كان يبرز المفكر الذي كان ينظر إلى الطريقة التي تجعل مشروعا جماعيا قابلا للإنجاز، والمثقف المقتنع بأن ما هو إنساني كان هو الشيء الوحيد الأساسي. بدأت الكفة تميل إلى جهة الرجل الساكن، الساعي باطراد إلى أن يتحول إلى كائن لا مرئي، إلى أن يحتل كل مرة مكانا أصغر في الفضاء. وحتى عندما كان يوجد وحده بالمنزل، كان يظل ساعات وساعات في الدولاب.

وحده الحنان الفائق لإيلينا واقتراحاتها الرقيقة لأن يفعل، من فضلك، هذا أو ذاك، إلحاحها لكي يتم ترجمة ميلتون التي بدأها في عز الحرب أو أن ينقل إلى الورق آراءه حول الابتذال الشعري للشاعر لوبي دي فيكا وآلاف الطلبات الأخرى حتى يعود الأستاذ الذي كان، وحده هذا كان بإمكانه رد البريق إلى عينين مثقلتين بالظلمة، ويزداد نسيانها من طرف المشهد العام.

فقط عند وجود لورينصو بالمنزل، كان يظهر من جديد الرجل ذو العزيمة، القادر على إغراء وتسلية طفل تكسوه الهموم. كنت أحرص على ألا أدعو أحدا إلى المنزل حتى لا يضطر أبي إلى الاختباء في الدولاب، غير أن أمي، عن حب أو بشكل مقصود، كانت ترقب لي سلسلة من اللقاءات مع أصدقائي بمنزلنا. وحين كان يحدث هذا، كان أبي يغلق على نفسه في دولابه مع قنديل غاز وبضعة كتب إلى أن يذهب الجميع. ولحسن الحظ، فكل من حارسة العمارة الذميمة والبذيئة وزوجها كاسطو عامل البناء المسلول والشاحب كانا ينفجران غضبا كلما رآيا طفلا ليس من

أبناء العمارة المحروسة من طرفهما بغيرة كبيرة، مما كان يحول دون الزيارات غير المرغوب فيها لأصدقائي والارتباك الذي كان يخلفه قرع جرس الباب.

لا يمكنني أن أنسى كيف أنه ذات مرة، وكان اللقاء بمنزلنا، شعر أبي بمغص واضطر إلى الذهاب إلى الحمام على وجه السرعة. ويرغم أن باب غرفة الأكل كان مغلقا، فإن أحد الأطفال رأى ظلا يعبر الممر. ولتخلص أمي من المأزق، وجدت حلا للوضعية في أن تتحدث عن شبح كان يأتي من وقت إلى آخر لزيارتنا. بالطبع، جمد التفسير الدم في عروق الحاضرين، لكننا كنا على درجة من الاستعداد لتقبل الخوف، وعلى درجة من التعود على صور الجحيم، وعلى دراية جيدة بمعنى النحس وساكنيه، جعلت الجميع يقتنع بالتفسير. تابعنا لعبة الطاولة وبعد فترة وجيزة سمع صوت حوض ماء المرحاض الذي، وهو يمتلئ من جديد، كان يحدث دويا ينتهي بصفير يشبه هبوب الريح. أشلت الدهشة والخوف حركة الجميع، غير أن أمي اكتفت بالتعليق بنبرة طبيعية: «دوما يفعل الشيء نفسه هذا الشبح. يطلق الماء ويذهب». خيم إحساس بالارتياح على أصدقائي وتابعنا اللعب.

ما هو متعال يتضمن قدرا من الحنان لا يمكن تحديده ولا تصله الكأبة(*)، كما يمكن أن يقول الشاعر، وهو هبة الدموع الرائعة. دموع رأيتها تزهز، أبانا، في عيني إلينا ذات يوم تبعثها فيه، بعد أن أوصلت ابنها إلى المدرسة، حتى منزل بشارع طوريوخوس اقتحمته بشكل فجائي مدفوعا بفضول شرير، أعترف بذلك. شرعت في ملاحقتها لا قصد مراقبتها

بل لأستمتع برؤيتها لأنني إلى الآن، بعد أن أخدمت الأحداث التي ما كان بالإمكان تجنبها لهب النار(*)، مازال قلبي ينخلع حينما أتذكر إيقاع مشيتها المتمهلة.

دخلت بناية ببوابة مهيبية وأسعفتني الوقت لمعرفة أن المصعد توقف بالطابق الرابع. كان الأمر يتعلق بورشة لخياطة ملابس أنثوية داخلية كانت تهيأ بطلب من نساء شبقات يشكلن، من دون شك، الحلقة الأكثر مجونا في مجتمعنا. كانت إلينا تتلقى مقابلا ماديا عن كل وحدة تخطيها لهذه الورشة، وينبغي أن أعترف أنني شعرت ببعض الغضب عندما رأيت تلك اليدين اللتين خلقتا لمداعبة الأبناء والأقرباء وهما تضيعان في إنجاز تلك الأعمال التافهة. لا أستطيع أن أفسر لماذا، وأنا محاط بتلك الدمى الوقحة التي كانت تقاس عليها الثياب، أمسكت يديها بين يدي وأخذتهما حتى لامسا وجهي وأنا أهمس لها أن الله خلقهما لمهام أكثر رفعة. لم تبعدهما، أبانا، واعتقدت أنها كانت تفهم مرادي. تركتهما ثابتتين فوق وجهي وشعرت بنسيم ملمسهما وهو يغزو إسمنت اختياري الكهنوتي، مغيرا ملامح مشروعني وجاعلا من كوني شماسا أمرا غير واضح.

عندما نظرت إلى عينيها، وسط جمود الخياطات الحاضرات اللواتي كان لباسي من دون شك يولد لديهن شعور احترام عميق، وجدتها تبكي في صمت. على ماذا كانت نادمة أبانا؟ أم أنها كانت، كما ظننت في تلك اللحظة، متأثرة إلى حد كبير بعاطفتي؟ الآن أعرف، أبانا، أن دموعها لم يكن مردها إلى شيء من ذلك، لكن، يا لحسرتي ! تعين أن يموت إنسان لأفهم ذلك.

نطقت متلعثما بذريعة ما همني أن تكون تافهة لأبرر وجودي
بذلك المنزل ورجعت إلى المدرسة راضيا عن نفسي إذ إنني، على
طريقتي، قلت لإلينا إنني كنت مستعدا لحمايتها. إن لم تقبل
فستكون مغفلة مثل التمثال الذي يرفض قاعدته.

- هل تحب أمك كثيرا؟

هز لورينصو رأسه موافقا. داعب الراهب سالفادور الطفل
علامة استحسان. على الأقل مائة من التلاميذ كانوا
يطوفون بالساحة مشكلين حشدا ضاجا وتحكمه فوضى هم
الوحيدون الذين كانوا قادرين على فهمها. وبما أن الفضاء
لم يكن كافيا لهم جميعا، فقد كانت المجموعات هي التي
تتداخل وليس الألعاب، إذ إنهم كلهم كانوا يعرفون مع من
وضد من يلعبون.

- أولا تتلقون رسائل من أبيك؟

هز ريكاردو رأسه علامة النفي.

- لماذا؟

- لأنه ميت.

داعب الراهب سالفادور مرة أخرى قفا الطفل وهو يتحدث عن
مشيئة الرب وعن مقاصده التي لا يمكن الكشف عنها وأشياء
أخرى لم يفهمها لورينصو.

- ولا أحد يساعد أمك؟

- أحيانا تأتي السيدة أولاليا. ولكنها هي الآن في السجن.

- ولماذا هي في السجن؟

- لأنها تلاعبت بأسعار الخبز.

أخيرا قال شيئا صحيحا. كانت أولاليا امرأة سميئة، عريضة وطويلة وقد رسمت سنواتها التي تجاوزت الستين على وجهها تجاعيد متناسقة تمنح نظرتها الزرقاء بريق جمرة وتجعل ابتسامتها تشبه نقشا على جوهرة.

كانت تريح قوت يومها بصعوبة بالعمل خادمة، وكان نظام المنازل التي تشتغل فيها من الصرامة بحيث كانت تتمكن من العمل فقط في المساءات.

عندما كان الجوع يتجاوز قدرتها على المقاومة، كانت تطلب من إلينا قطعة من الخبز الأبيض لبيعها بسوق التموين الذي كان يوجد بشارع هيرموسيا.

كانت إيلينا، التي تعرف أولاليا منذ أن كانت طفلة لأنها عملت دوما في منزل أبويها، تعطيها الخبز وتلتزم بزيارتها في سجن النساء بلاس فينطاس.

كانت أولاليا، بتنورتها القروسطوية وشعرها الأبيض، تتزين ليراها الحراس، وكان كل احتجاز يعني وجبتين يوميتين خلال عشرة أو خمسة عشر يوما وذلك وفق درجة الوقاحة التي تبديها إزاء حزم المفتش.

أيام الخميس، في السادسة، كان إلينا ولورينصو يقفان في الرصيف المقابل لسجن النساء وكان منديل يهتز بين شباك كوة لإطلاق الأسلحة بمنزلة الإشارة إلى أن أولاليا كانت بصدد استعادة قواها لتواصل الحياة بعد خروجها.

كانت عينا ولورينصو مركبتين على مجموعة من الأطفال يلعبون الكرة. وبحركة تلطف، ترك الراهب سالفادور الطفل

يلتحق بأقرانه، وظل يتتبع كيف اندمج في لعبة لا يفهم قوانينها سوى اللاعبين. لا يعرف لماذا، لكن إجابات الطفل أفعمته سرورا إلى درجة جعلته يتغاضى عن معاقبة طفل بلا أسنان بصق في وجه زميل له كان قد انتزع منه دوامة.

الصرخات، لعب الأطفال المتحمس، الشمس ملطفة جوا شفافا، سلامة طوية متضمنة بإجابة، النظام الطبيعي لكل شيء، الزمن وقد سطر في مواقيت، القطيع وراعيه، التراتبية، كل هذا أرجع إلى الحاضر المذاق الذي كان له فيما قبل حينما لم يكن بعد منتصرا بل صانعا للنصر. شعر الراهب بأنه كمن انتقل من وضعية حرمان من الميراث إلى وضعية ورث فيها الأرض بأكملها. خطرت بباله هذه الفكرة: «سيكون العياء قد لحق بهم». ومن دون مقدمات، عبر تلك الساحة متمتما: لا نرغب في المزيد (*)!

بألكالا، بالمنزل رقم ١٧٩، كان يعيش شخص مقلق: سيلفينين. كان نسبيا أكبر سنا من بقية أعضاء المجموعة، لكن فارق السن لم يكن ليبرر نظره منا. كان ذا شخصية صلبة، مائلا دوما نحو الأمام إلى درجة كان يبدو معها كأنه يمشي فقط ليحافظ على توازنه. نادرا ما كان يندمج مع مجموعتنا. كان أبوه رجلا لا يثير الانتباه لولا رفقة زوجته التي تنبهه إلى حضوره، برغم أنها لم تتميز بجمال خاص، وإن كانت نموذجا للوداعة، ومازلت أذكرها كملجأ صامت إزاء تجهم الراشدين المتحكمين حينذاك في عالمنا. كانت تكتفي بالتحية في حين أن زوجها، من فرط خسته، ما كان يكلف نفسه عناء القيام بذلك.

كان لسيلفينين جدية أبيه ولون العينين الزرقاوين وابتسامة أمه: كان يفرض علينا احترامه. أتذكر أننا كنا في مناسبة ما مجتمعين كلنا حول مصطبة عيادة الأسنان المؤدية إلى شارع أياالا، فمرأمانا قس من كنيسة كوفادونغا، كائن قميء ومتسخ، بورم في الجبهة وشفتين مرتختين ودائمتي البلل ترشان ريقا عندما يلقي خطبه ضد الخطيئة في قداس الأحد، وكان يجمع رغبة كثيفة بيضاء بشدقيه وهو يهمهم بصلواته. جميعنا، وامتثالاً لما تعلمناه في المدرسة، سارعنا إلى تقبيل يده التي، دون أن يتوقف، تركها بفتور تحت رحمة احترامنا المجامل، جميعنا باستثناء سيلفينين الذي سألنا عندما اجتمعت المجموعة من جديد: «هل تظنون أن الرهبان لا يغسلون مؤخراتهم؟»

ضحك الآخرون لدعابته، أما أنا فقد شعرت بخوف لا عقلائي من أن يكتشف السر المحفوظ بمنزلي، وفي الوقت نفسه شعرت بتواطؤ حميم مع ذلك الجار. الآن، لا يمكنني أن أقول لماذا، بما أن أبوي، إن لم تخني الذاكرة، لم يحدثاني قط لا عن الكنيسة، ولا عن الإكليروس ولا حتي عن الدين الذي بتحوّله إلى مادة للتاريخ المقدس وقواعد الدين، يصبح ببساطة شيئاً عليّ استظهاره، مهمة كانا يشاركان فيها أحياناً، وهذا ما جعلني أستنتج أن أبوي كانا يخشيان تلقيني ما كان يعتقدان، وأنا كنت أخشى أن أعرف ما يعتقدان. كان ذلك شكلاً آخر من التواطؤ مثله مثل الدولاب الذي يعيش فيه أبي أو ترميل أمي. كل شيء كان واقعياً ولكن ليس حقيقياً بالمرّة.

هل من المفروض أن تكون لحظة التنازل هي التي تعرف قطف الأزهار المولودة بشجيرة الحياة الشائكة؟ تساءلت بيني وبين نفسي. وهل يمكنني أن أتحوّل إلى الشجرة المتينة التي انتصبت بفعل التآرجح بين الخطايا وإعلانات الندم، بين الضلال والعودة إلى الطريق القويم، بين العجرفة والإهانات؟ أعترف أمامك، أبانا، بعد كل هذه السنوات من فصول الشتاء وحالات الجفاف، أنني تتبعت كيف تتشكل داخلي براعم زهرة قادرة على أن تثمر. فكرت في التخلي عن وضعي كراهب وأن ألتحق بالقطيع. كان قد انقضى أكثر من ستة أشهر على حديثي الأول مع إلينا، وتمت لقاءات أخرى، عن سابق ترتيب أو بالمصادفة، اختبرت فيها قيمة مشاعري وكذا، كما حكيت من قبل، متانة هذه الصداقة التي أتعهد لها.

فقدانها لزوجها الذي، برغم أنه ينتمي إلى طائفة المكبلين بمنطقنا التاريخي، هو بالإضافة إلى ذلك أب أطفالها، انعدام أخبار ابنتها إلينا التي رمت بها الحرب العاصفة إلى الأرض المجهولة الصامتة، والضرورة القاهرة إلى أن تدفع إلى الأمام برعما حيا لكن حزيننا في الآن نفسه، كل هذا وأشياء أخرى كثيرة كانت تفسر عدويتها المنفلتة، عدم استعدادها للحديث عن أي شيء باستثناء الحديث عن ابنها، سرعتها في وضع حد للقاءات والحياء الذي كانت تحس به عند حديثها عن نفسها. حينها كنت، أبانا، أبرر ذلك السلوك مسميا إياه وقارا.

ذهبت إلى منزلها عدة مرات خلال ساعات الدراسة طمعا في أن تتاح لي فرصة الحديث عن مقاصدي، ولكنني ما كنت أجدها

قط هناك. ربما كان من المفروض أن يجعلني هذا المعطى، المثير للشكوك بالنسبة إلى امرأة، أخذ احتياطاتي، غير أن ذهولي إزاء احتمالات تنمو بشكل طارئ في مستقبلي لم يسمح لي بأن أحلل الطابع غير العادي للوقائع.

برغم أن مهمتي بالمدرسة كانت ذات طابع إداري، وخرجاتي كانت تبررها أساسا الحاجة إلى جمع تبرعات تضمن السير الجيد للنظام، فقد ويخني الراهب أركاديو، رئيسنا، بسبب سلوكي المستهتر. كان على صواب. أصبحت الصلوات تبدو لي كأنها لن تنتهي، ولم تعد الشعائر الدينية تولد لديّ القلق المفروض أن يحس به كل مخطئ أمام عيني الإله، وثق بي، أبانا، من كل الساعات التي أقضيها متعبدا فقط كانت تبقى بذاكرتي جملة واحدة من المزامير: كنا نردها.

توقف المصعد في الطابق الثالث. كانت إلينا بالمطبخ تغسل عدسا وتجمدت كأن ما تقوم به يحدث ضجة. أما ريكاردو، الذي كان منشرحا لأنه عثر أخيرا على ترجمة مرضية لبیت شعري صعب لكيتس، فقد ترك أصابعه معلقة في الهواء فوق حروف الآلة الكاتبة كأنه بوغت وهو يقوم بشيء ممنوع. وحدها ساعة حائط غرفة الأكل ظلت تتحرك بعد أن رن الجرس.

كل هذه السكينة تحولت إلى رقابة قلقة وصامتة. عبرت إلينا الممر بصمت إلى أن تأكدت من أن ريكاردو كان يتهاى للاختباء داخل الدولاب. عدلت من وضع السبحة التي تحجب المفصلات، وقصدت الطاولة التي كان يشغل عليها زوجها وسحبت كل ما كان مكتوبا باليد. فتحت الشرفة بشكل

كامل لتتيح الفرصة للربيع كي يدخل، ومع الحرص على ألا تحدث أي صوت، ذهبت حتى باب الدخول. ظلت تنتصت منتظرة صوتا يخبرها عن هوية الزائر، لكن فجأة رن الجرس من جديد واهتز جسدها إلى درجة أنها لم تتمكن من أن تتجنب إطلاق صرخة مقموعة.

كان الطارق هو الراهب سالفادور بوجهه المدور وصلعته الخفيفة، في الجهة الأخرى من العين المعدنية مبتسما وشفثاه مغلقتان وعيناه ليستا مفتوحتين بشكل كامل. كان يقوم بحركة يريد بها جذلانة ومستعطفة. فتحت إلينا الباب ودخل وهو يرقل: مساء الخير، مساء الخير، مساء الخير...

فقط بعد أن تجاوز العتبة سأل إن كان بإمكانه الدخول. وحينها أغلقت إلينا الباب وهي تقول: «تفضل أيها الراهب». ورافقته حتى غرفة الأكل. لم تدعه إلى الجلوس لكنه جلس مع ذلك مشيرا إلى الحر الشديد الذي يولده رداؤه. وقد عرضت عليه أن تعطيه كأس ماء لكن وجه الضيف استعاد ابتسامته الجذلانة ورد قائلا: «أفضل بعض النبيذ».

عندما عادت إلينا من المطبخ حاملة زجاجة وكأسا، كان رجل الدين يتفحص كتبا أخذها من الرف. قال شيئا ما غير واضح عن القراءة والوحدة ورفع الكأس التي قدمتا له مرددا «على نخبك إلينا». شرب جرعات صغيرة وسريعة لينتهي بتلمظ مبتذل مع تنهيدة مطولة أرادها مديحا لنبيذ فال دي بنياس.

– كنت أريد أن أحدثك عن لورينصو.

– هل حدث له شيء؟

- لا، لا بالعكس. إنه فتى رائع. بإمكانه أن يكون الأول في قسمه. لكن خجله...

وشرع في عرض مطول حول تعلم الحياة، وعن الشجاعة اللازمة لكي يكون الأفضل، الأفضل بين أقرانه(*)، الأفضل في عيني الرب. ربما غياب الأب...

صمت إلينا فسح المجال أمام ثرثرة رجل الدين الذي تكلم عن التضحية التي يعنيها التعليم، وعن الرضا الذي كان يمنحه، وعن ضرورة الانتباه إلى المتفوقين لإمدادهم بالطاقة الضرورية ليصلوا إلى مرتبة الزعامة في القضايا الكبرى.

- أنا أستطيع أن أمكنه من الالتحاق بالمدرسة الإكليريكية.

- لم تستطع إلينا أن تخفي ابتسامه.

- ولكنه مازال طفلاً!

- علينا أن نوجه، أن نوجه، إلينا، ذلك هو واجبنا وما هو منتظر منا. هذا لا يلزمه شيء. سيتلقى تكويناً رفيعاً وسيتمهناً للمستقبل، وإذا كان نوري نوصو يرغب في ذلك، لا شيء يجبره على أن ينتهي منشداً في القديس. انظري إليّ، لقد قضيت اثنتي عشرة سنة في المدرسة الإكليريكية وأظن أنني لم أعد أرغب في أن أصبح راهباً...

- أو لست راهباً؟

- لا يا امرأة! أنا فقط شماس، خادم الكنيسة، ولكنني في يوم من الأيام، سألتقي بمن سأكون معها أسرة...

ربما ليبدد التعبير عن المفاجأة الذي علا وجهها، سأل عن المرحاض فأشارت له إلينا أين يوجد واستغلت غيابه لتتأكد

من أنه ليس هناك أية آثار لوجود ريكاردو بالمنزل. بالتدريج تم التعود على إزالة أي أثر لحضوره، من التبغ الذي تخطى عنه لتجنب تفسيرات كانت تثار في مكاتب بطاقة التمويل، إلى الدفاتر المخطوطة التي كان زوجها يستعملها لترجماته الأدبية، مروراً بالثياب التي لم تكن تعلق قط ويتم تجفيفها بالمكواة، كانت حياة ريكاردو قد أصبحت مثل الهواء: كان موجوداً لكنه لم يكن يحتل حيزاً في الفضاء.

عندما خرج الراهب سالفادور من الحمام، كانت بيده شفرة الحلاقة التي يستعملها ريكاردو. النظرة البذيئة للشماس وهي تتأرجح بين الشفرة وعيني إلينا، وبين عيني إلينا والشفرة، تحولت إلى استنطاق صامت حيث كانت تتزاحم كل الأسئلة وتتدافع كل الأجوبة.

- وهذه؟

- إنها شفرة حلاقة.

- هذا ما أراه. لن تقولي لي إن لورينصو قد بدأ يحلق ذقنه.

انتهى تردد إلينا إلى قهقهة كانت تريد خنقها بين يديها واختلط الغضب الذي كان ينعكس على وجهها باحمرار خجل.

- آه، أيها الراهب، كم هو عظيم جهلك بعالم النساء! ألم

يخبرك أحد أننا نحلق سيقاننا لما يقترب فصل الصيف؟

ولا هي نفسها تمكنت من أن تفسر من أين استقت الطاقة

اللازمة لتغمز بعين وتبتسم في الآن نفسه.

- إن ذلك أحد أسرار دالنا

- أنت تحلقين ساقيك؟

- بالطبع ! كل النساء تقريبا يفعلن ذلك.
كأنها تريد أن تأتي بحجة تؤكد براءتها رفعت تنورتها حتى
الركبتين لتريه أن ما كانت تقوله صحيح.

حينذاك تقدم الراهب سالفادور نحو إلينا، قابضا على شفرة
الحلاقة في يده، وهو ينظر بتركيز إلى الساقين اللتين كانت
التنورة المرفوعة تسمح برؤيتهما، وانحنى نحوها، كأنه يريد
إنقاذ جرو متخلى عنه، وأحاط بيده الأخرى ريلة ساقها بوداعة.
اللمسة اللزجة لتلك اليد المبللة، وجه ذلك الراهب وهو
يداعب بخشوع ريلة ساقها، جلدها المقشعر من أثر التقزز،
خشيتها من أن تصرخ، عجزها من أن تدافع عن نفسها وغضبها،
كل هذا جعل إلينا تلعن جاذبيتها.

بمحاذاة عالمي، كانت هناك قطعة أرضية تحولت إلى مطرحة
نفايات. كانت تقع إلى جانب قاعة سينما الجزائر ومنها كان
يمكن سماع الموسيقى التصويرية للأفلام المعروضة عبر أبواب
من الزنك تؤدي إلى الخلاء. لا أدري لماذا ارتبط في ذاكرتي ذلك
الفضاء القفر باكتشاف الممنوع.

قرب بوابة منزلي، كان هنالك دكان فحم مفتوح دائما لرجل
من منطقة أستوريا، ضخم الجثة وبالع الطيبوبة بأسنان سليمة
وناصعة تلمع في وجهه المتسخ على الدوام بالفحم. كان اسمه
صفيرينو لاغو وأتذكره وهو يحرك من دون توقف أكياسا من
سقاط الفحم والشظايا وكربون شجرة البلوط. كانت زوجته
بلانكا تبدو في الحقيقة كأنها أرملة. كانت تلبس دوما لباس
العزاء وتلتزم الصمت، وكانت حركة دائمة دالة على الألم تجعل

الزبائن يقدمون لها العزاء وإن لم يكن أحد يعرف من هو آخر المتوفين في عائلتها.

كان للفحامين ولدان، لويس شاب بمعرفة يعتد بها بخصوص أشياء العالم - كان لا يتردد في أن يحكم على امرأة تدخن بأنها مومس- والآخر لا أذكر اسمه (خوان؟) كانت له قدرة على الغضب لا يمكنني أن أنساها. كانت له أسنان أبيه نفسها مع بعد الكبر مما كان يجعلها تطل، ولو كان فمه مغلقا، من بين شفتين لحيمتين، مرتخيتين ومبللتين. حسنا، ابن الفحام هذا، سبع أو ثماني سنوات أكبر منا، كان يروق له أن يأخذنا إلى القطعة الأرضية الخلاء لننصت إلى الأشرطة الصوتية للأفلام المصنفة ضمن الدرجة الرابعة، أي الأفلام بالغة الخطورة. أتذكر أنه كان هنالك تصنيف وضعته السلطات الكنسية لم أتمكن قط من فهمه: الأفلام المأذون عرضها، وتلك التي تعرض بشكل نادر، أفلام الدرجة الثالثة، أفلام الدرجة الثالثة مع تحفظات، وأفلام الدرجة الرابعة.

لا أحد منا كان يفهم مرتكزات هذا التصنيف، لكنه كان عالما لا يحتاج إلى تفسيرات. في شبابيك الدخول، مع التذاكر، كانت تباع بفلس واحد أوراق مقواة مطبوع عليها شعارات مرتبطة بالنبلاء كنا نسميها رموزا. كانت عليها سكة على شكل مثلث في الجزء الأعلى لتعلق بعروة طية صدر السترة وعلى الواجهة الأخرى يمكن قراءة جملة تقول إن ثمن هذا الشعار هو مساهمة طوعية في إعادة بناء الوطن. لم تكن نفهم ما يعنيه كل ذلك ولكن بما أن اللغة كلها كانت عبارة عن غلو، فالحرب الصليبية

معناها الحرب والهمر هم الشياطين، والوطني كان مرادفاً
للمنتصر، وكان من الطبيعي أن تكون كلمة «طوعي» تعني
«إجباري» بدليل أن الحارس لن يسمح لك بالدخول إذا لم يكن
الشعار بارزاً على تذكرة الدخول.

لم نكن نذهب إلى السينما إلا لماماً، غير أننا بفعل السطوة
الجسدية لابن الضحام، كنا نظل مرابطين إلى جانب أبواب
الزنك التي كانت تستعمل لتهوية بهو الأرائك.

كنا ننصت بخشوع إلى تلك الحوارات التي لا ندرك لها معنى،
وإلى الموسيقى التي كانت تغلف تلك الأصوات من دون أن نفهم
أي شيء على الإطلاق، لكن ابن الضحام الذي لا أتذكر اسمه،
كان يقفز فجأة وهو يضحك بعصبية ويقوم بحركات قد أصفها
اليوم بالبذينة ولكنها كانت تبدو لي حينذاك مجرد هلوسات.

بواسطته، وصلتني التصورات الأولى عن شيء كان عليّ أن
أخفيه عن أبوي. كانت الأسرار تربطني بالناس كما تربط الجذور
الأشجار بالأرض. لم أكن أعرف ما الذي كان بالضبط يتشكل
منه سري، غير أنه في الوقت الذي كان أطفال آخرون يؤمنون
بالعذراء أو بفرانكو أو بالبابا أو بالوطن، كنت أنا أومن بأسراري.
كان ينتابني شعور بأنني في الطريق إلى أن أصبح حكيماً. بدأت
أفهم معاني جمل مكتوبة في مراحيض المدرسة ومغزى بعض
الحركات التي تعكسها ملصقات قاعات السينما، غير أنه وفي
الوقت نفسه تطرق ذهني إلى أفكار عن العلاقة بين أبي وأمي
حينما أكون غائباً. فهو كان يترك اللحية تنبت لتحلقها له في
الأيام التي يشعلان فيها الموقد - فقط في تلك الأيام - فيزداد

بعدها شيئا، وتصاب أمي بهزال بفعل حزن لزج وقاتم، كل ذلك كان يبدو لي بمنزلة مؤشرات على أن أمرا مشؤوما يجري في بيتي. في هذه اللخبطة من التوجيهات الأخلاقية، كان الجسد منضيا، والأحاسيس التي نتلقاها عبره تعتبر جيدة إذا ما كانت ثمرة الألم، أو أنها تولد متعة ومن ثم فهي رديئة. ذلك أن الصحة كانت مرتبطة بالتضحية في حين أن المرض سببته دوما ترضية الغرائز. كان أمرا يتم إخفاؤه عنا نحن الأطفال، فما كنا نعرف ما الذي يتعين أن نفعله بأجسادنا.

ولو أن النوم كان يغلبني في النهاية، فإني كنت أحيانا أظهار بالنوم وأرهف السمع لأعرف متى يمارس أبواي العلاقة، فقد كان من الواضح أنهما يفعلا شيئا ما حتى يصلا إلى هذه الدرجة من التدهور.

الآن أتذكر بحنين صمتهما.

كم من الصعب، أبانا، أن ينتصر المرء وتكون النتيجة أن يتحول من جديد إلى ضحية لكل الرضا الذي استشعرته خلال ثلاث سنوات لكوني أنتمي إلى مجموعة المختارين لتوجيه الماء الجهنمي، كل المجد بدأ يتحول بالتدريج إلى إخفاق: إخفاق عند تغيير ثوبي الديني بلباس المحارب، إخفاق عند إخفاء أنفة الصليبي خلف عجرفة التربة، إخفاق لكوني وضعت قناعا تحت تمرد شهوة غير متحكم فيها، وفشل، في النهاية، لأنني لم أفطن إلى أن ما كنت أريد إغراءه كان بصدد إغرائني.

هوسي كان بكل بساطة أن أنفرد للحظة بإلينا. وأخيرا، ذات يوم، وجدت بها بمنزلها وكانت زيارتي ذات طابع رسمي لأطلب منها

أن تسلم ابنها إلى الكنيسة لتتعهد. تحدثنا في هذا الموضوع ويشكل فجائي، من دون أن أعرف كيف وقع ذلك، وجدت نفسي ساجدا قبالتها. لأسباب لا داعي للخوض فيها كانت إلينا قد تركت جانبا سذاجتها لتقف أمامي بحسية قصية وهدمت بحركة واحدة كل قناعاتي. يولد جمال الشر الشجي والمؤثر خشوعا أكثر من إثارته الخوف. وروحي شقت وحدها طريقا في ظلمة الليل (*). متخلى عنها في ظلمة ليلة كنت أنا أجهلها. لماذا جذبتني إلينا وصدتني في الوقت نفسه؟ جننت ولست متأكدا من أنني قد عدت إلى جادة الصواب.

إلينا، علينا أن نهرب. نعم سنذهب. يمكننا ترك الطفل مع أخواله بمينطريدا. إذا هربنا علينا أن نهرب ثلاثتنا. حسنا، لكن لا ينبغي أن ننتظر أكثر. نعم، لا يمكننا أن نعيش على هذا المنوال. لا، لا يمكن. لدينا بعض المدخرات. سيقترضني أخوالي بعض المال. لا، لا تطلب منهم شيئا، سيحاولون معرفة ما الذي يقع. طيب، لن أطلب منهم شيئا ولكن كيف سنتصرف؟ أسفار قصيرة جدا في الحافلات. لن يتجاوز السفر خمسين كيلومترا. هناك مراقبة أقل على الحافلات مقارنة مع القطارات. سنتأخر هكذا بشكل كبير. سنتأخر الوقت الذي يتعين أن نتأخر. المهم أن نهرب نحن الثلاثة. الثلاثة، حبيبتي. حبيبي. علينا أن نصل إلى المريأ، هنالك مراكب صيد يساعدون على العبور بطريقة سرية إلى المغرب مقابل ثلاثمائة بسيطة. ومن أين سنأتي بهذا المبلغ؟ سأبيع كل ما يمكن بيعه. بما في ذلك سمكة المورانو التي تركها لك أبوك؟ أجل. لن نستطيع أخذ أي شيء معنا. لا شيء. كنت

دوما تقول إنه تميمنتنا. تميمنتنا ماتت. إلينا، حبي أنا، حبي.
في اليوم التالي، أخذ لورينصو رسالة موجهة إلى الراهب
أركاديو يخبره فيها أنه سيضطر إلى التوقف عن حضور الدروس
لأنه سيخضع لعملية جراحية تخص اللوزتين، وأن الأمر
يتطلب معالجة قبلية وغيابه يمكن أن يمتد إلى أسبوعين.
وصلت الرسالة إلى يدي الراهب سالفادور الذي سأل الطفل
لماذا توقفت أمه عن مرافقته.

أمي أيضا تعاني من التهاب اللوزتين. وليس من المستبعد أن
تموت.

للسبب نفسه الذي جعلني لم أسأل قط لماذا يعيش أبي داخل
دولاب، بما أن هذه الأشياء كانت تقع في الجهة الأخرى للمرأة،
لم أسأل قط لماذا توقفت أمي عن مرافقتي إلى المدرسة. في
البداية، كانت تتركني على بعد كتلتين من البنايات، وأنا كنت
أتابع وحدي ما تبقى من الطريق. بعد ذلك، كانت ترافقني حتى
تقاطع شارعي الكالا وغويا، وفي النهاية لم تعد تخرج من المنزل
حين يتم إرسالني إلى المدرسة.

كانت أمي قد تحدثت مع قاطعي تذاكر المترو ليأذنوا لي
باجتياز الممر تحت - أرضي لتجنب تقاطع الطرق الوحيد
الذي يشكل خطورة في مسيري، إذ برغم أن سيارات قليلة كانت
تستعمل في تلك المرحلة، فقد كانت عدة طرق تؤدي إلى هناك
ويتم عبورها بالتأكيد بسرعة أكبر نظرا إلى اتساعها. اكتشفت
أن رائحة المترو تشبه رائحة الثياب المستعملة، وكانت له درجة
حرارة النفس ومضاء بالضوء نفسه الذي يستعمل عادة في

الحجرة المعدة لكي يموت فيها المرضى.

أحياناً، حينما كنت أخرج باكراً، كنت أنزل إلى الأرصفة وأنتظر وصول القطار. بتلك الأنفاق كان يختبئ المصابون بالبرص، وكان صرير العجلات يبدو لي كأنه صرخاتهم وقد داسهم القطار. كانت أقواس الأفواه السوداء للأنفاق تجتذبني بقدر ما ترعبني لأن عالمي كان في مفترق طرق يمكن أن تصل إليه كل الشرور. الآن اعرف أنني كنت خائفاً.

قلت المرات التي كان يخرج فيها أبي من دولابه. كان يظل مغلقاً على نفسه حتى في حالة وجودنا وحدنا بالمنزل. وكان هذا يروق لي، إذ عند عودتي من المدرسة كنت أرتكن إلى جانبه وإلى جانب صمته. كنا نظل هكذا طوال ساعات إلى أن تقطع أمي السكون لتقدم لي قطعة خبز بالشوكولاتة. عن تلك الشوكولاتة الغامقة التي كانت كأنها مخلوطة بالرمل، بإمكاننا، نحن الأطفال الذين عايشنا تلك المرحلة، أن نكتب كتاباً حول طبيعة الحيل التي كانت تجعلها قابلة للأكل: شرب الحليب عندما تكون في منتصف عملية المضغ، أن يبلل الخبز بالماء لكي يندمج غبار الشوكولاتة ببعضه البعض، وما كان شائعاً هو أن تقضمها شيئاً فشيئاً تاركاً لها ما يكفي من الوقت لكي تتشبع بالرقيق.

ومع مرور الأيام، أصبح أبي يقضي وقتاً أطول بالدولاب. ووصل الأمر إلى أننا كنا، أنا وأمي، نأكل على مائدة المطبخ وهو يأكل في مخبئه. كان يمضغ بتقتير يدفع إلى اليأس كأنه كان يريد أن يتجنب الصوت الذي يحدثه خبز الجاودار عندما يتم مضغه. أصبح كل شيء ملطخاً بالحزن. أحسست بالذنب لأن

ذلك الدولاب بدأ يكتسب الرائحة السائدة بالمترو، وكان يبدو لي أن ذلك سينتهي بجذب المرضى بالبرص.

غير أن ذهابي إلى المدرسة وعودتي وحدي كانا يمنحاني لحظات تأثر مملوءة بالجرأة. كان بإمكانني التوقف عند واجهات المتاجر وأنظر بوقاحة إلى من هم أضعف مني. في الصباح، عند الذهاب، غالباً ما كنت أنزل إلى أرصفة المترو. وفي طريق العودة، كنت أتوقف لتأمل عجوز بحدبة كانت منهمكة في نسج جوارب إلى درجة أنه لولا الحركة المتواصلة ليدها لكنت أقسمت أنها قد قدت من خشب كالقديسين الموجودين بمذبح الكنيسة. عند العودة إلى المدرسة بعد الغداء، كنت أنزل مرة أخرى إلى جحيم المترو، وعند عودتي إلى المنزل في المساء، كنت أجرب طريقاً يعبر بالضرورة ميداناً كنا جميعنا نطلق عليه اسم ساحة طوروس ببيخا. هناك اكتشفت أن الراهب سالفادور كان يتبعني مرتدياً لباساً مدنياً.

أبانا، جريح أنا في كبريائي وخجل في الآن نفسه من الهواجس التي كانت تشكك في اختياري الكهنوتي، طلبت إذنًا من المدرسة لكي أغادر، بشكل مؤقت، الدير والتدريس، وبالإعانة التي قدمتها لي أسرتي استقررت بنزل كانت تسيره متعبدة عجوز بكنيسة سانتا خيما. حينها بدأت أشعر بأن حقاً ما قد سلب مني. إيماني، اختياري، انتصاري، رجولتي، سلبت مني من طرف امرأة كانت ترفض أن تمنحني ما لم أتمكن قط من أن أطلبه منها. لكنها كانت تصدني انطلاقاً من فشلها، انطلاقاً من كفرها، انطلاقاً من هزيمتها، والآن أعترف بذلك، انطلاقاً من

جمالها. كيف لامرأة مهدمة من جراء كل هذه الخيبات، أن تظل غير مبالية تجاه اعترافاتي؟ كنت في حاجة إلى جواب. بالتدريج، بدأ الأثاث المتبقي بمنزل آل ماصو في الاختفاء. أخذ بائع حدائد الشماعة المصنوعة من خشب القسطل، واشترت جارة لطيفة ومتواظئة كانت تعيش بالطابق الأخير آلة الخياطة، ودفع بائع للثياب البالية ثمننا بخسا مقابل ملاءات الكتان وفرشة سرير مخيطة باليد شكلت جزءا من مهر الجدة ولم تستعمل إلا في ليلة زفاف أم إلينا وليلة زفاف إلينا نفسها. كانت لاتزال بها رائحة العشق والنفثالين. فرشة شبيهة بهذه كانت قد أهديت لابنتهما عندما هربت مع ذلك المراهق قبيل نهاية الحرب. لم يرغب أحد في أخذ مائدة الأكل لحجمها الكبير، وكانت آلة الكتابة من نصيب محاسب بالشركة الإسبانية الألمانية التي كان ريكاردو ينجز لها ترجمات.

احتمال أن يمرض ريكاردو كان يجعل من الهروب أمرا مستعجلا. كان كل أصدقائه، من دون استثناء، قد ماتوا أو اضطروا إلى اللجوء إلى المنفى، ولن تكون لهم إمكانية أن يستضيفهم أحد إذا ما تحول ضعف زوجها إلى شيء أكثر خطورة.

كانا قد جمعا من المال ما يكفي تقريبا لبداية السفر، لكن ذلك المنزل الموحش كان يجعل ريكاردو يظل مشدودا عليه بالدولاب إلى درجة أنه ما كان يخرج حتى للنوم. وكان الطفل، الذي توقف عن الذهاب إلى المدرسة، يقضي الساعات الطوال قرب والده يقرأ له فقرات من لويس كارول ليسرق منه ابتسامة ويلزم الصمت

كلما توقف المصعد بالطابق الثالث. وجاء يوم مملوء بالصمت والفراغات طرق فيه أحدهم الجرس، انتظر الجواب الذي لم يأت وألحَ بضغوطات مطوالة على الجرس أوقفت كل خفقان. الدقات على الباب والصرخات التي يسمع صداها في السلالم جعلت آليات الفرار تشتغل من دون أن يكون هنالك فرار. أغلق ريكاردو على نفسه باب الدولاب، ولجأ لورينصو إلى المطبخ ورتبت إلينا شعرها بيدها قبل أن تفتح الباب. ظل الراهب سالفادور، بلباسه غير الديني وغير المرتب، مضطرباً ومن دون حراك حين رأى أن إلينا قد فوجئت بضوضاء الزيارة.

- جئت لرؤية لورينصو. كيف حاله؟

الآن أنا نادم لأنني لم أخبر أبوي بأن الراهب سالفادور كان يراقبني، لذا ففي اليوم الذي جاء فيه إلى المنزل على حين غرة لم يكونا مستعدين. وصل وهو يركل الباب ويصرخ. لم تجد أُمي مناصاً من أن تتركه يدخل. أتذكر أن المنزل كان كأنه من دون أثاث لأن غرياء أخذوه لأسباب لم أتجرأ على أن أسأل عنها ولكني كنت أربطها بفقرهم لا بفقرنا.

دخل بحماس وهو ينادي عليّ ولم يتوقف عن الصياح إلا عندما عثر عليّ بالمطبخ وأنا أتظاهر بقراءة «أليس في بلاد العجائب». سألتني عن حالي، نزع الكتاب من بين يدي، أرجعه إليّ في الحين، وطلب مني من دون أن ينتظر مني جواباً أن أتركه يتحدث بعض الوقت مع أُمي.

خلال سنوات عدة، عذبتني الإحساس بالذنب لأنني استحضرت المرضى بالبرص لعلهم يأكلون هذا المسوس الذي كان يؤذي

أمي، ولأنني عندما جئت مرعوباً حينما سمعت صرخاتها، رأيت كيف أن أبي بمظهر بئيس وعلامات العجز بادية عليه، كان مرتعياً على الراهب سالفادور الذي كان بدوره يحاول الاقتراب من أمي وهي تحمي وجهها باليدين لتجنب نفس ذلك الخنزير الواضع أنفه قرب عنقها. كان أبي قد خرج من الدولاب.

صحيح، ليس هناك عضو إن لم تتم إراقة الدم. (*) الآن أفهم المغزى العميق لرسالة العبريين هاته.

لقد كنت أداة لإقرار العدل. لهذا انحزت إلى جانب من قاموا بغزو الإمبراطوريات، إلى جانب من أغلقوا فم الأسود. (*) إلى من هربوا على حافة السيف. (*) مثل خيديون، مثل باراك، مثل خيفطي، ومثل سامسون نفسه، كان بين يدي السلاح لمعاقبة الذين، بمخالفتهم إرادة الرب، مازالوا يبحثون عن وطن. (*)

مدفوعاً بقوة ما كنت أعرف أنني أملكها، أباناً، هاجمت هذا المعبد المحروس بعناية وهو نفسه الذي كانت هذه المرأة تمنعني منه. وكان جزء يسير من غضبي كافياً لكي يخرج من مخبئه المحرض على الشر، المدبر الخسيس لكل هذه الشبكة من الأكاذيب. كان زوج إلينا مختفياً في هذا المنزل.

وهو يصرخ بشيء غير مفهوم، ارتقى ريكاردو على الراهب سالفادور الذي استطاع أن يقف وهو يحمله على كتفه من دون أن يتبين ما الذي كان يحدث. وعندما تمكن من أن يتخلص من ذلك الشخص الطارئ الذي كان يتمسك بعنقه كأنه يريد خنقه، كانت صفة منه كافية لكي يحلق من هاجمه بشكل تام في الهواء. للحظات تغلبت الدهشة على الغضب واستدار رجل

الدين المرتدي لباسا عاديا نحو ثورينصو الذي كان مذهولا أمام
الباب، وسأله:

- من يكون هذا الرجل؟

أجاب الطفل:

- إنه أبي.

وركض إلى جانب إلينا التي شرعت في نوبة بكاء كأنها
تحتضر وكانت تمشي على أربع لنجدة زوجها.

حينذاك بدأ الراهب سالفادور في الصراخ مطالبا بحضور
الشرطة وهو يتراجع في الممر وذراعا ممدودتان كأنه يريد قطع
الطريق على جيش من الشياطين الراضية في الهرب.

كان أبي يبدو مفرط الهزال مقارنة مع بدانة الراهب
سالفادور. ركعت أمي أمام الجسم الممدود لأبي، وعندما
اقتربت أخذتني في المزيج الأعزل الذي كانت تشكله وحافظت
على أجسادنا مضغوطة كأنها كانت تريد حجبنا عن كل
الانظرات. عندما استرجع أبي ما يكفي من القوى ليعانقنا
بدوره، شرعنا ثلاثتنا في بكاء أتذكره كأنه دام لسنوات. ولكن
لم يكن هناك ما يكفي من سنوات للجميع. الدولاب، المخبأ،
الأكاذيب، وكل حالات الصمت كانت قد وصلت إلى نهايتها.

تمكن ريكاردو من الوقوف بصعوبة لأن الضعف والألم
وثقل زوجته كانت تحول دون ذلك، غير أنه عندما تبين له
أنه يستطيع المشي، تقدم في الممر متعقبا ضجيج صرخات
الشماس الذي كان قد فتح جميع النوافذ وهو يصرخ طالبا
أن يتم إخبار الشرطة.

شيئا فشيئا بدأت تظهر وجوه خلف ستارات نوافذ الساحة، ولكن ولا واحدة فتحت خشية من أن ينتقل هذا الجنون إلى منازلهم.

شعرت بقوة يهوه بذراعي وغضب وطني في الحنجرة. ولكنني كنت أريد عدلا لا انتقاما. كان الشرير يريد تكسير كبريائي ويبحث عن طريقة لإهانتي.

الآن لست متأكدا مما أتذكره، ذلك مع أنني أرى أبي جالسا وهو يمد رجله على إطار إحدى نوافذ الممر، مع أنني أسمعهم وهو يودعنا بصوت عذب وهادئ، فإن أُمي تقول إنه رمى بنفسه في الفراغ من دون أن ينطق بكلمة.

انتحر، أبانا، لكي يتحمل ضميري مسؤولية التيه الأبدي لروحه، ليسلبنى مجد إقرارى للعدل.

تردد ريكاردو للحظة قبل أن يرمي بنفسه إلى تلك الساحة التي قضى وقتا طويلا يحمي نفسه منها. أخذ وقتا كافيا، وهو يتوجه نحو الفراغ، لينظر إلى إلينا وإلى ابنه مع ابتسامة حزينة تشبه الابتسامات التي تستعمل عادة في الوداعات الحزينة.

لا بد أنها على صواب لأنني لم أتمكن قط من نسيان وجه أبي وهو ينجذب نحو الفراغ، وجهه الباسم بينما الساحة تلتهم جسمه المهمل، وإن كان هذا مستحيلا لأن قامتي ما كانت تسمح لي حينذاك بأن أطل من تلك النافذة.

هنا ينتهي اعترافي، أبانا. لن أعود إلى الدير، وسأحاول أن أعيش تبعا للتعاليم المسيحية خارج الرهينة. سامحني

إذا كانت رحمة الإله تجيز ذلك. ساكون عنصرا إضافيا ضمن
القطيع، ذلك أنني مستقبلا سأعيش باعتباري عنصرا
إضافيا بين أزهار عباد الشمس العمياء.

المترجم في سطور

عبد التعليف البازي

- من مواليد تملوان - المغرب. ١٩٦١.
- حاصل على الإجازة الجامعية ودبلوم الدراسات المعمقة في الأدب الحديث من كلية الآداب - فاس.
- يعمل مديرا للمركز الثقافي المغربي - الإسباني (الأندلس) بمرسيل. كما يرأس تحرير مجلة «فن الكتب».
- عضو اتحاد كتاب المغرب منذ العام ١٩٨٨.
- نشر العديد من الترجمات عن الإسبانية والفرنسية.
- له عدة كتب من إصدارات وزارة الثقافة بالمغرب.

المراجع لي سطور

د. فهد راشد المطيري

- من مواليد الكويت ١٩٧٢.
- حاصل على شهادة الليسانس في اللغة الإسبانية وآدابها، جامعة سلطنتكا، إسبانيا، ٢٠٠٠، وليسانس في الأدب العربي من الجامعة نفسها، ٢٠٠١.
- حاصل على شهادة الماجستير في علم اللغة العام، جامعة أسكن، بريطانيا، ٢٠٠٥، وعلم اللغة النظري، ٢٠٠٧. كما حصل على شهادة الدكتوراه في علم اللغة النظري، جامعة أسكن، بريطانيا، ٢٠١١.
- يعمل أستاذاً مساعداً لعلم اللغة النظري، كلية التربية الأساسية - البصرة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب.
- له العديد من المؤلفات باللغة الإنجليزية ومساهمات في مؤتمرات ومجلات علمية.

ما صدر من هذه السلسلة

تأليف : جلال آل أحمد	ثون والقلم	318
تأليف : تشاندرا سيخار كامبار	سيرى سامبيجي	319
تأليف : جورج أرويل	أيام بوزمية	320
تأليف : ايتالو كالفينو	ست وصايا للألفية القادمة	321
تأليف : ت. س. إليوت	المسكوكير الخصوصي	322
تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين	قصص برازيلية	323
تأليف : رولان بارت	شعرات من خطاب في العشق	324
تأليف : جيمز ماكبرايد	لون الماء	325
تأليف : أمريتا بيريتام	وجوهان فحواء	326
تأليف : اليخاندرو كاسونا	المنزل ذو الشرفات السبع	327
تأليف : مجموعة من القاصين الباكستانيين	من الأدب الباكستاني الحديث	328
تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك	مختارات من القصة التركية العااصرة	329
تأليف : بهرام بيضائي	مسرحية محكمة العدل في بلخ	330
تأليف : بنانا يوشيموتو	مطبخ - خيالات ضوء القمر	331
تأليف : جونتر جراس	الطباخون الأشرار	332
تأليف : هاينرش فون كلايست	الجرة المكسورة	333
تأليف : أندريه شفيدي	شمل تشابه ضائع	334
تأليف : فلاديمير هلباتش	حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم	335
تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين	زهرة الصيف	336
تأليف : ليوبولد سيدار سنغور	طام - طام زنجي	337
تأليف : نيكولو ماكيافلي	البيروج	338
تأليف : جوهر مراد	منزل النور	339
تأليف : تشنوا أشيبي	كثبان التمل في السافانا	340
تأليف : أرتور شنييتسر	أناطول وجنون العظمة	341
تأليف : إيفان بوقين	غرام ميتيا	342
تأليف : فيمي أوسوفيسان	أرنجندين والحارس الليلي	343
تأليف : تنغ - هسغ بي	ورقة في الرياح القارسة	344
تأليف : إيريش كستمر	مدرسة الدكاتاتور	345
تيد هيووز	رسائل عيد الميلاد	346
تأليف : سليمان جيفو ديوب	حكايات وخرافات أفريقية (1) الطفل الملك	347
تأليف : فريدريش شيلر	مسرحية عذراء أورليان	348
تأليف : سليمان جيفو ديوب	حكايات وخرافات أفريقية (2)	

ما صدر من هذه السلسلة

الأدغال والسهول العشبية تحكي	349
القصة القصيرة الإسبانية الأمريكية	350
تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية	351
مسرحيتا: 1- محنة الأخ جيرو	352
تأليف: وول سوينكا	353
2- تحول الأخ جيرو	354
روض الأدب (مختارات قصصية)	355
تأليف: أو. هنري	356
مسرحية: ألتيجون،	357
تأليف: ب. بريشت	358
أجمل حكايات الزن	359
تأليف: هنري برونل	360
يتبعها فن الهايكو	361
مسرحية: المقهى،	362
تأليف: لاوشه	363
مسرحيتا: 1- صناعة تاريخ	364
تأليف: برايان فريبل	365
2- ترجمات	366
رواية: الشباب،	367
تأليف: ج. م. كويتيتزي	368
مختارات من الشعر المجري	369
تأليف: مجموعة من الشعراء المعاصرين (شعراء السبعينيات)	370
المجريين	371
مسرحيتا: 1- تلاميذ الخوف	372
تأليف: إيجون وولف	373
2- الفزاة	374
اسمي آرام (مجموعة قصصية)	375
تأليف: وليام سارويان	376
حامل الإكليل (قصص مختارة)	377
تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية	378
الصورة (مسرحية)	379
تأليف: سيلافومير مروچيك	380
الأيام الخمسة الأخيرة لرسول	381
تأليف: تحسين يوجل	382
(رواية)	383
سبع مسرحيات ذات فصل واحد	384
تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي	385
أندجي ماليشكا	386
ستانسلاف ليم (ستانسلاف)	387
سوافومير مروچيك	388
سبع نساء... سبع قصص	389
تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات	390
تأليف: نويل كاورد	391
زمن الضحك	392
(ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	393
تأليف: روبين دايشييد	394
بالأبيض على الأسود	395
تأليف: غونساليس غاليغو	396
(رواية)	397
مسرحيتا: 1- سهرة في المقهى	398
تأليف: تيان هان	399
2- موت ممثل مشهور	400
إمرأة وحيدة وفروغ فرخزاد وأشعارها،	401
تأليف: مايكل هلمان	402
سيرة حياة	403

ها مدر من هذه السلسلة

369	الملاح، (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجي شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحفوظ (مسرحية)	تأليف: فويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثوروفي	تأليف: جيروم لورنس
	السجن (مسرحية)	وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	الأسيرة، (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيك علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيك علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لارنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لارنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لارنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: أرافيند أديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجارييسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
390	ياسمين (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل أبرهاردت
391	المغامرة الفامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كان
392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: آناندا ديفي
393	أنطولوجيا القصة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجد وديوال	تأليف: أمادو همباطي با
395	خرائط (رواية)	تأليف: نور الدين فرح
396	إله الصدفة (رواية)	تأليف: كريستن توروب



أزهار عباد الشمس العمياء

في هذا العدد نقدم إلى القارئ العربي رواية للكاتب الإسباني ألبرتو مينديس. حمل عنوان «أزهار عباد الشمس العمياء». وتحتوي على أربعة فصول وأربع هزائم لشخصيات مختلفة. تضيء الرواية بشكل باهر مرحلة قاتمة من تاريخ إسبانيا. بأهوالها وفظاعاتها. حيث تعرض لدناءة البعض. ورقعة البعض الآخر أخلاقيا.

وتتداخل الوقائع والتفاصيل في الرواية لتقدم لنا صورة عن الحرب الأهلية في إسبانيا. وعن مرحلة الاستبداد الفرانكوي في أبعادها الإنسانية وفي تأثيرها في المصائر الفردية. تعتبر الذاكرة والألم موضوعان مركزيان في الرواية. التي تنسم بالتفاصيل البسيطة أحيانا. والانفعالات العميقة والعنيفة. وصراعها المرير مع ماضيها وجاريها أحيانا أخرى.

وعلى الرغم من الأجواء القاتمة التي تهيمن على الرواية. فإن هناك احتفاء ملحوظا بالإبداع والمبدعين. من خلال شخصيات من بينهم الشاعر والمترجم. والرسام.

تعتبر «أزهار عباد الشمس العمياء» من الروايات الإسبانية الكلاسيكية التي حازت على إعجاب واهتمام النقاد. كما أنها حظيت باهتمام كبير وفازت بجوائز عدة.

ألبرتو مينديس

- (1941 - 2004). هو ابن الشاعر والمترجم فوسيه مينديس هيريرا.
- قضى طفولته بمدريد ودرس أولا بروما. حيث انتقلت أسرته للعيش فيها لدواعٍ سياسية واقتصادية.
- حصل على الإجازة الجامعية في الفلسفة والآداب من جامعة كومبلوتينسي بمدريد.
- ناضل في صفوف الحزب الشيوعي الإسباني حتى العام 1982. وعمل في عدة دور نشر إسبانية وغير إسبانية.
- حصل العام 2002 على الجائزة الدولية للقصص «ماكس أوب» عن قصته «مخطوط عثر عليه في النسيان» وهي أحد فصول روايته «أزهار عباد الشمس العمياء» التي فازت بعد وفاته بالجائزة الوطنية للسرد. وجائزة النقد. وغيرهما.

رقم الإيداع: 2013/518

ردمك: 978-99906-0-401-6